

الابحار



قطاع الثقافة



قطاع الثقافة

دوميرول

الإبادة

THECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

حرب خبيثة



رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٢٠



مقدمة

الإلياذة أشهر ملاحم الشعوب القديمة قاطبة، وقد أجمع على ذلك النقاد ومؤرخو الأدب وأجمعوا على أنها مع زميلتها وقريبتها في الشهرة ملحمة «الأوديسة» هي من تأليف الشاعر الإغريقي القديم هوميروس. وأجمع أكثرهم على أن أحداث الإلياذة وقعت حوالى فى منتصف القرن الثانى عشر قبل ميلاد المسيح، ولكنهم يختلفون حول شخصية هوميروس نفسه، بعضهم يقول : إنه لم يكن هناك شاعر بهذا الاسم أصلاً وبعضهم يقول: إن هوميروس شاعر عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد. أما هيرودوتس فيقول : إن هوميروس كان من مدينة خيوس القديمة فى ولاية يونانية على ساحل الأناضول اسمها ايونيا ويقول : إن هوميروس عاش فى القرن السابع قبل الميلاد.

والإلياذة The Iliad تعنى «قصة اليوم» أو «اليوس»، واليوم أو اليوس هى طروادة، المدينة الأسبوية. القديمة الواقعة على شاطئ البوسفور حيث وجدت خرائبها تحت تلال الرمال، بعد أن دمرتها القبائل الأيونية والأبولية والدورية - أسلاف الإغريق القدامى - فى حروب طويلة امتدت قرناً كاملاً قبل تسعمائة

عام من ميلاد المسيح، وأغلب الظن أن الحرب نشبت بسبب المنافسة على التجارة والسيطرة البحرية على جزر بحر إيجه وعلى سواحل الأناضول وشمال اليونان.

أما هوميروس فقد زعم أن الحرب نشبت بسبب اختطاف الملكة الاغريقية هيلين بيدي الأمير الطروادي «باريس» وزعم أن الحرب استمرت عشر سنوات فحسب.

ولكن إلياذة هوميروس لا تحكى قصة الحرب كلها، وإنما تحكى قصة «غضب أخيل» بطل أبطال الاغريق فى الحرب، وهذه القصة تستغرق العام الأخير من الحرب. ومن خلال غضب «أخيل» وأحداث انقتال فى عامه الأخير يروى هوميروس فى حبكة محدودة ومتقنة كيف ولد أخيل؟ وكيف اختطف «باريس» هيلين؟ ويروى تواريخ حياة كل من قادة الاغريق وتاريخ طروادة قبل الحرب، كما يروى ملخصا لكل ما حدث فى السنوات التسع التى استمر خلالها الحصار. فإلياذة هوميروس تبدأ بالمشاجرة التى وقعت بين أخيل وبين «ملك الرجال» أجاممنون، وتنتهى بالإلياذة بتمزيق جثة هكتور بطل طروادة وابن ملكها. ولكن هوميروس يروى من خلال هذه الحبكة المحدودة الضيقة أحداث السنوات التى تسبق المشاجرة، ويروى الأحداث التى تقع زمنيا بعد جنازة هكتور، من مقتل أخيل وفتح طروادة وتدميرها.

وقد ترجمت الإلياذة إلى كل لغات العالم تقريبا، وترجمت إلى الانجليزية أكثر من خمس عشرة ترجمة قام بها عدد من كبار الشعراء الانجليز. وقد استند درينى خشبة فى «صياغته» العربية للإلياذة على أربع من هذه الترجمات الانجليزية.

استند إلى ترجمة جورج تشابمان فى القرن السابع عشر، وهى أفضل الترجمات الانجليزية، وتكاد تكون إعادة لصياغة الملحمة بأسلوب وبناء يتلاءمان مع ذوق العصر الاليزابيثى فى إنجلترا، وقد امتدحها الشاعران الانجليزيان العظيمان كولريدج وكيثس. واستند درينى خشبة أيضا إلى ترجمة ويليام كاوبر فى القرن الثامن عشر،

وإلى ترجمة الكسندر بوب فى القرن الثامن عشر أيضا، وإلى ترجمة ويليام إيرل أوف دربى فى القرن التاسع عشر.

وأتبع الكاتب العربى فى صياغته للإلياذة ثم للأوديسة من بعدها نفس الطريقة التى أتبعها جورج تشابمان ألا وهى إعادة كتابة ملحمة هوميروس بالأسلوب والبناء اللذين يعتقد أنهما أصلح لعصره وأكثر ملاءمة للغة. إن الأحداث التى سيجدها القارئ هنا سابقة لبداية أحداث الملحمة الأصلية أو تالية لنهايتها، موجودة بنفس النسيج داخل الملحمة الأصلية، ولكن درينى خشبة حاول أن «يفرد» هذه الأحداث، وأن يضعها فى مكان من البناء الفنى يتلاءم مع التسلسل الطبيعى للزمن، لكى يحصل على أكبر قدر ممكن من تسلسل الأحداث للملحمة بحيث لا يخل بحبكته الرئيسية. وربما كان ما دفعه إلى اتباع هذا المنهج هو ما اعتقده من أن بعد جو الملحمة عن قرائه، وعدم معرفة غالبيتهم بأسماء الأبطال والآلهة وتواريخهم ولا بأسماء الأماكن ومواقعها، قد تؤدى كل هذه العوامل إلى إبهام الملحمة وغموضها أمام القارئ العربى. ومن ناحية أخرى فقد أثر درينى خشبة أن يلخص بعض المقاطع التى لا تروى حادثة متعلقة مباشرة بحبكة الملحمة أو بوقائعها الرئيسية، كما حذف مقاطع أخرى رأى أنها قد تؤذى السياق الجديد فى الصياغة العربية بإبعاد القارئ عن مجرى الأحداث.

وبالتالى فإن تقسيم الملحمة الكلاسيكى إلى أناشيد أو «كتب» منفصلة، لم يعد مجديا هنا - وربما كان على درينى خشبة أن يكتب صياغته العربية بالشعر - وقد كان شاعرا لا يحب أن يعلن عن نفسه - ولكنه أثر أن يكتبها بالنثر، ربما لأنه رأى فى النثر قدرة على نقل ما ينقله الشعر الكلاسيكى، خاصة إذا كان مثل نثر درينى خشبة فى هذه الصياغة بليغا وموسيقيا وغنيا بالتعبيرات الفنية والصور والأوصاف والتشبيهات، هذه الصفات التى تجعله أقرب ما يكون إلى أسلوب الشعر الكلاسيكى الذى كتبت به الملحمة فى الأصل، وترجمت إليه فى اللغات الأخرى. ولعل مما يجدر ذكره هنا، أن أحدث هذه

الترجمات فى اللغة الانجليزية قد استخدمت «الشعر المرسل - Blank verse، الأقرب إلى النثر بموسيقاه الخافتة وإيقاعه البطيء المستقيم كإيقاع النثر البليغ.

والملحمة التى بين أيدينا الآن، مثلها مثل السير «الشعبية» العربية. كسيرة بنى هلال، أو عنتره، أو سيرة الظاهر بيبرس، تقوم على حكاية رئيسية - هى الحكاية الرئيسية من حكايات الحرب حسبما رأى مؤلف الملحمة - وترتبط الحكاية بأحداث الحرب كلها، وبالحياة الواقعية التى يعيشها الشعب - أو الشعبين - المشتبكين فى الحرب. هكذا يربط هوميروس بين حكايته الرئيسية، وهى حكاية غضب البطل الإغريقى أخيل، من أكبر ملوك الإغريق وقائد حملتهم «على طروادة» الملك أجاممنون. فقد سلب الملك من أشجع أبطال جيشه الفتاة الأسيرة الفاتنة بريسيز، ويشعر البطل بالاهانة البالغة، وهو الذى خيرته الآلهة بين حياة آمنة وخاملة وطويلة وبين حياة قصيرة مليئة بالمجد الحربى والبطولة تنتهى تحت أسوار طروادة. ولا يحتمل أخيل الاهانة، فهو يعرف أنه يضحى بحياته نفسها هنا فى هذه الحرب من أجل أجاممنون وأخيه الملك مينلاوس، فيعتزل الحرب ويترك بنى وطنه يواجهون الهزيمة والقتل، وحين يبتهل إليه أعز أصدقائه، أن يخرج للقاء الأعداء وردهم، يتركه يخرج فى دروعه هو للقتال، فيفقد أخيل أعز الأصدقاء، وحين يخرج لينتقم له من قاتله - هكتور - ويقتله، يتنبأ له هكتور بما ستصير إليه الحرب : سيقتل أخيل نفسه بسهم من سهام باريس - شقيق هكتور - ولكن طروادة ستسقط فى أيدي الإغريق وتلتهمها النيران.

ويربط هوميروس بين هذه الحكاية الرئيسية وبين أحداث الحرب نفسها من ناحية وبين حياة كل من الإغريق والطرواديين من ناحية أخرى، وفى هذا الجانب الذى يشمل أحداث الحرب وأساليب ممارسة الحياة، يقدم لنا صوراً بالغة الخصوبة والحيوية لحضارة بأكملها. مما يؤكد لنا معرفته الشاملة «الملحمية» بكل ما يتحدث عنه أو بصوره : أدوات المعيشة وأسلحة القتال وأساليب الاشتباك وأساليب التعبير عن

النفس فى كل المواقف من الحب إلى النزال إلى النقاش فى الاجتماعات العامة، ومن طقوس الزواج إلى طقوس العبادة أو دفن الموتى، وإلى ممارسة الألعاب الرياضية أو إقامة المآدب أو مجالسة الضيوف.

وهو يمزج فى إحكام بين الحكاية الرئيسية وبين الجوانب العامة والحكايات الفرعية التى يصوغها بإحساس انسانى وحساسية دراماتيكية قوية، الأمر الذى جعل ملحمتى الأوديسة والإلياذة مصدرا لا ينضب ينهل منه كتاب المسرح، وعلماء التاريخ والاجتماع واللغة إلى عصرنا هذا. وهوميروس شاعر بصير بالنفس البشرية، وبعلاقات الإنسان المتشابكة، وأعماقه إلى الدرجة التى جعلت أبطاله تمهيدا قويا لظهور أبطال المأساة «التراجيديا» العظيمة الكبار.

إننا نرى - مثلا - فى مقابل أخيل الغضوب الذى يشعر بمصيره الفردى المفجع رغم شجاعته، وحصانته الأسطورية ضد الموت ورغم نبلة وجماله ومهارته الخارقة فى القتال، نرى فى مقابله هكتور النبيل، بطل طروادة الأكبر الشجاع، الذى يحب وطنه وأسرته ولا يفكر فى مصالحه الشخصية أبدا، والذى يحارب تحت أسوار مدينته، وفى موقف الدفاع اليائس، ويجتاحه الحزن حين يفكر فى الخطر المروع الذى يهدد وطنه وأسرته : الدمار والقتال والعبودية. إنه أب نبيل وزوج محب وابن حنون وبطل وطنى، وضعته الأقدار - رغما عنه - فى مواجهة أعتى الخصوم، وجعلته يخوض حربا دفاعا عن أخ نذل ووالد ضعيف، ولكنه يخوضها حين يدرك أن الخطر يهدد وطنه كله بالاذلال والخراب. وحول «أخيل وهكتور» مجموعات من الرجال والنساء، أبطال وآلهة وزوجات وأمهات، فيهم الداهية الماكر ولكنه النبيل العاقل - مثل أوديسيوس بطل الأوديسة الذى يدخل الحرب مكرها ولكنه يصبح عقل الاغريق المدبر وصاحب الحيلة التى ستهزم طروادة فى النهاية، وفيهم أجاكس الجبار والشجاع الذى يقتل نفسه - فى نوبة جنون حين يحرمه القادة من دروع أخيل، وفيهم أجاممنون الذى يتراوح بين النبل والندالة وبين الكرم والخسة وبين الشجاعة والجبن، وفيهم مينلاوس الزوج الذى خانته زوجته فأشعل الحرب ثم يتوارى فى الظل لكى يفوز

بكل شيء فى النهاية، وفيهم بريام ملك طروادة الضعيف المحزون صاحب النهاية المفجعة، أما أرباب الإلياذة، فقد صورهم هوميروس كالبشر العاديين بكل أهوائهم وانفعالاتهم، بل يخضعون للقدر بأكثر مما يخضع البشر العاديون، فلا ينبغي النظر إليهم إلا على أنهم بعض أبطال بشريين يتميزون ببعض القدرات الخارقة نسبيا، وليست «ألوهيتهم» إلا خرافة ينبغي التمرد عليها مثلما فعل أخيل وديوميديز وغيرهما.. وهذا هو التمرد الذى مهد لتمرد سقراط العظيم فيما بعد، حتى ظنه بعض المؤرخين نبيا.

والجدير بالذكر دائما، إن هذه الصياغة العربية للإلياذة، قد جعلت الملحمة الاغريقية، جزءا من تراث الأدب العربى الحديث، وإحدى الروائع الأدبية الكبرى التى تضمها اللغة العربية الأدبية المعاصرة، بفضل حرص درينى خشبة على بلاغة التعبير العربى وروعة أسلوبه ورصانته. لقد استخدم درينى خشبة فى بعض اللحظات، عبارات - وتعبيرات، مشتقة من المصادر الكبرى لعبقرية اللغة العربية، وعلى رأسها، بالطبع، المنبع الأول لهذه العبقرية، وهو القرآن الكريم. وفى لحظات أخرى، يستفيد المعرب من تراث الشعر العربى الملىء بقصائد الحرب، أو الغزل، أو الفخر أو الحماسة، وبالصور البليغة الحيوية المؤثرة، وفى لحظات أخرى استفاد المعرب من تراث السير الشعبية العربية، خاصة فيما يتعلق بطريقة السرد، وبالتمهيد للمواقف الحاسمة فى الأحداث، أو المواجهات الحاسمة بين الأبطال، سواء كانت مواجهات حربية، أو عاطفية، أو إنسانية : وبذلك أقام درينى خشبة - من خلال التعبير الأدبى العربى الجميل والاستفادة من كل تراث اللغة العربية - علاقة وثيقة بين الملحمة اليونانية فى صياغتها العربية - وبين الأدب العربى نفسه، وهو ما جعل هذه الصياغة - التى بين أيدينا الآن - إحدى الروائع التى يقرأها أجيال القراء العرب، باستمتاع منذ الثلاثينات - حين نشرت أول مرة - إلى الآن، وسيستفيد منها دارسو الأدب الكلاسيكى، وكل عشاق الأدب الرائع العظيم.

سامى خشبة

التفاحة

. نشيد الزمان!
وقصيدة الماضي!
وغناء السلف!
وحذاء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء
الأزل، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد،
ركبانها الآلهة، وأبوللو، وكيوبيد وملؤها ولدانها
المخلدون.



انشد يا هوميروس!
واملا الأحقاب موسيقى!
واللا نهاية جمالا وسحرا!
فالأرواح ظامئة، والقلوب متعبة والإنسانية
واجفة، والأذان مكدودة من دوى العصر، فهي
أبدا تحن إلى سكون الماضي!



لن تصمت يا هوميروس!
فالقيثارة الخالدة لا تزال بيدك!
والقلوب هي القلوب!
فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً، فقد أوسعنا
هذه الدنيا أنينا، ورنينك العذب أذهب لأنين
الشاكين ولوعة الباكين!

رأها تخطر فوق الشج، وتميس على رؤوس الموج، فهام بها،
وشغلته زمانا عن أزواجه فى قصور الأولمب، فكان يقضى عند
شاطئ البحر يتربقب الفرصة السانحة، يفتش فى كل موجة عن حبيبته
«ذيتيس».. عروس الماء الفاتنة، «ذات القدمين الفضيتين»، ابنة نريوس،
رب الأعماق، الثاوى مع زوجته الصالحة دوريس، فى قصور
المرجان.. هناك.. هناك تحت العباب..

ورقت له الفتاة، حين علمت أنه رب الأرباب، وسيد آلهة الأولمب،
زيوس العظيم، فوصلت بحبالها حباله، تطمع الخبيثة فى أن تصبح
زوجة أولمبية عظيمة، تصاول حيرا أم مارس وفلكان، وتفاخر لاتونا
أم ديانا وأبوللو، وتدل على ديون أم فينوس.. وعلى سائر أرباب
الأولمب!

وابتسم لهما الزمان، وتساقيا كؤوس الهوى، وأوشك الإله الأكبر أن
يبنى بها لولا وسواس خامر قلبه، فأثر أن يستشير ربات الأقدار^(١)
قبل أن يبت فى الأمر، أو يقطع فيه بشيء :

ولقد شاء حسن طالع الإله الأكبر أن يفعل، إذ أخبرته أن ذيتيس
الجميلة التى يهواها سيد الأولمب، تلد غلاما لا يزال يقوى ويشتد،
حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه، أو على الأقل «تكسف شمس
عظمته شمس أبيه، فيعيش إلى جانبه إمعة لا شأن له». وهولن فحدثته
عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع، ويستحر القتال، بين شعبه
«الاغريق» وجيرانهم «الطرواديين»..

وخفق قلب زيوس، وذكر تلك الحرب الضروس التى انتصر فيها

(١) زيوس هو صاحب الأمر والنهى على جميع الآلهة فى الميثالوجيا اليونانية، ماعدا ربات الأقدار
Fates وهن ثلاث ربات، (أ) كيلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء (ب)
الاخيسيتين تبرمه فتجعل منه المتين والواهى (ج) اتروبيوس كبراهن وهى نقطة جزاء فجزاء بمقص
كبير.

على أبيه ساترن ^(١) بعد فظائع وأموال، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه.

لذلك قصر هواه، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضى بأن تتزوج ذيتيس من بليوس ملك فيتيا، الذي كان هو الآخر مولعا بها، شغوبا بجمالها.. حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تتزوج ابنته من بشرى هالك ولو كان ملكا. بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر، وقبل بليوس لابنته بعلا..

وحزنت ذيتيس، وانعكفت في غرفتها المرصعة باللآلئ تشكو وتبكي، فلما علم زيوس بما حل بها، زارها من فوره، وطفق يلاطفها ويترضاها، حتى رضيت أن تكون زوجة لبليوس الملك «على أن تحضر بنفسك، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف، وليعزف أبوللو على قيثارته، ولترقص ديانا ربة القمر..»

- ٢ -

ودقت البشائر، واضطرب بطن أليم، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط، ووقفت الأوسيانيد والنيرييد وسائر عرائس الماء صفوفًا صفوفًا تحيي الضيوف الأعزاء، اللطفاء الأحياء، وتغنى وتنشد. وترسل الحانها الخالدة موقعة على الموسيقى المشجية.

وانبرى أبوللو يوقع على قيثارته الذهبية. أبوللو! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة، فلم يكن يصنع شيئًا أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة، فتقفز الحجارة راقصة من الطرب إلى مكانها من الأسوار!

وانطلقت ديانا ترقص.. فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط

(١) حرب طويلة الأجل لا يتسع المكان للتحدث عنها.

من القمر الفضى، وتعلو فى السماء، أم ديانا الهيفاء، ترقص فى القلوب والأحشاء!

ونهبز الجميع إلى المقصف الفاخر، الذى تفتنت فى تنويع أكالاته وأشرباته أيد آلهية ماهرة، فأكلوا ما لذ، وشربوا ما طاب. وأخذوا فى سمر جميل. وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيرتفع المكان الحاشد بالضحك، وتدوى الأكف بالتصفيق!

وبينما الآلهة فى قصفهم، لا يفكر أحدهم إلا فى هناء العروسين، إذا بالربة المنكرة إيريس^(١) تظهر فجأة فى وسط الجماعة، ثم تشرع تقلب فيهم عينين تقدحان بالشر، وتنفثان سم البغض، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خصل ثعبانية شائثة ذات فحيح وصلصلة، وعلى صدغيها الأبرصين يخشخش عقربان منكران، لكل منهما ذنبان يقطر الموت الأسود منهما ههنا وههنا.

ظهرت إيريس غضبى محنقة، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس اغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التى أرسلت إلى الأرباب جميعا. وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذى ما تفتأ تثيره فى كل مكان وطئته قدماها. أليست هى ربة الخصام، النافخة فى نار العداوة التى تتضرم منذ الأزل فى الجوانح والقلوب؟.

لكنها لم تنس لهم هذا الإهمال، بل أقبلت، وهى تتميز من الغيظ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى ماتم أليم.

ولقد أوجس الآلهة جميعا خيفة حين رأوها تقلب فيهم ناظريها المشتعلين، غير أنهم اطمأنوا قليلا، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخوان الفخم تفاحة كبيرة من الذهب، نقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة : «للأجمل!».

(١) تسمى أيضا دسكورديا (ومعناها نزاع) أو أيتيه.

باريس :

درت عادة القدماء على أنه كلما ولد لأحدهم غلام توجه من توه إلى هيكـل أبوللو فى دلف يقدم القرابين ويذف الهدى، ثم يستوحى الكاهنة عما يكون مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء، ليأخذ للأمر أهـبته، وليعد لكل شىء عدته.

فلما وضعت هكيوبا، ملكة طروادة، غلامها «باريس». حمله أبوه الملك بريام إلى هيكـل أبوللو، ليرى رأى الإله فيه.

وأربد وجه الملك الشيخ، وتغضنت أساريره، حين قالت كاهنة المعبد : إن ولده سيكون كارثة على قومه وعلى بلده! وسيأتى من الإثم ما يجر إلى قتل ذويه وبنى جلدته. ويفضى إلى سقوط طروادة فى يد أعدائها.

وتحدث بريام إلى هكيوبا فى ذلك، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء، فوق إحدى جنبات الجبل، ينوشه طير جارح، أو تفترسه ذئاب البرية. وأنفذا فعلتهما الشنعاء! ولكن القضاء ينبغى أن يتم، والقدر يجب أن يأخذ مجراه، فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاه الأغنام فوجد الغلام وفرح به واتخذه لنفسه ولدا، ثم سهر عليه واعتنى به، ونشأ على الفروسية التى كانت أحب ما يزاوله الناس فى هذا الزمن.

وشب «باريس» فتى يافعا، جميلا مشوقا، فعمل مع الراعى الذى انقذه، وكان مولعا بالبحر، تشوقه أمواجه، وتفتنه أوداياه، يختلف إليه ريثما تفىء الأغنام فى الحر، يلهو بالسباحة، ويتريض بمصارعة الموج، وبدت له إحدى عرائس الماء - أيونونية - وكانت قسيمة وسيمة، فهويها وعلقها قلبه، وما لبثت أن أصبحت أعز شىء عليه فى هذه الحياة.

وهامت به ايونونيه، وأخلصت له الحب، وكانت تنتظر أوبته من
رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء، والعليل برد الشفاء.

وا أسفاه!

لقد قضت ربّات الأقدار - كلوتو وأختاها - ألا يدوم هذا الحب
طويلاً!

- ٤ -

اجتمعت الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها، وكل تدعى أنها
أجمل من فى الحفل جميعاً.. ثم ساد صمت عميق حينما نهضت «حيرا»
و «مينرفا» و «فينوس»، ميممات شطر الجهة التى يتنازع فيها الغانيات
من سائر الربّات على التفاحة الثمينة..

- «أنا حيرا العظيمة، مليكة الأولمب، وصاحبة الحول والطول فيه
وأثركن إلى قلب الإله الأكبر، أنا أحقّكن بهذه التفاحة العلوية وأعرفكن
بقدرها سأضمها إلى تفاحات هسبريا^(١) فهى بهن أليق، وهن عليها
أحفظ.. سيعلقنها مع أخواتها الثلاث لتزدان بها حدائقهن..»

- «أنت تفاخرين بملك الأولمب. وبالجاء والسلطان؟ اذن أين أنا؟
مينرفا.. ربة الهدى والسيل الحق.. أحق منك بهذه التفاحة..»

- «فيم تختصمان يا أختى العزيزتين؟ أليس قد كتب الحكم على
التفاحة نفسها؟ أليست هى للأجمل؟ أولست أنا.. فينوس.. ربة الجمال؟
لم تربعت على عرش الفتنة اذن؟ هى لى من دونكما..»

واختلف الآلهة، وساد الهرج والمرج، ولم يجسر أحد ممن احتشد
حول الخوان أن يفوه بكلمة يفضل به احدى الربّات الثلاث حتى لا يقع
فى سخط الآخرين، وحتى لا يكون أبدا عرضة لنقمتهم..

(١) راجع قصص «هرقل» فى كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق ج - ١ للمؤلف.

وتفرق الجمع بددا.

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فانتظرن عنده، واتفقن على أن يفصل أول عابر، مهما يكن شأنه، بينهن في أمر التفاحة، وتعاهدن، بالإيمان المغلظة، على أن يخضعن لحكمه. وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه.

وانتظرن طويلاً، وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف بالآلىء. والمرجان، كأن إلها حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لقية ايريس!

وكانت عروسه فتانة من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج، ولا تقتر تحرق ببصرها في الجهة التي جلست بها الربات يتربصن..

وكانت أيونونية من غير ريب! وكان الجبل مستراد باريس الذي يريح فيه قطعانه، ثم ينطلق للقاء حبيبته، فيتباثان ويتشاكيان.

وأقبل «باريس» يشدو لأغنامه ويغنى، فزلزل قلب أيونونية، وهلعت نفسها، وخافت على حبيبها خوفاً شديداً، ذلك أن أخبار النزاع الذي انتهى إليه يوم الزفاف من أجل تفاحة ايريس كان قد شاع، وتسامع به كل عرائس البحار، فلما عرفت أيونونية ما اجتمع الربات من أجله اضطربت ايما اضطراب، وقلقت على باريس ايما قلق. لأنه وحده هو الذي يجوز بهذه الطريق، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان. وكان مصدر قلقها هو ما عساه أن يجره على نفسه - إذا قضى بينهن - من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة..

- ٥ -

وصاحت حيرا. «قف أيها الراعى الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه، تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالا وأبهانا رونقا، وأنا - حيرا - مليكة الأولمب، وذات الحول

والطول فيه، وربة التاج والصولجان، وصاحبة القوة والسلطان. وأثر أزواج ربك، كبير الآلهة، وأحبهن إليه.. أنا - حيرا ذات الجبروت - وولدى مارس إله الحرب، ورب الطعن والضرب، أقوى أبناء زيوس العظيم.. وولدى فلكان كذلك، إذا شئت سررد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم، لا يشق لك غبار، ولا يجرى معك فى مضمار! إذا خضت حربا حماك مارس وأيدك، ونصرك فلكان وآزرك.. ألسـت ترى اذن أيها الراعى الجميل أنتى أحق من هاتين بتلك التفاحة. أنا - حيرا مليكة الأولمب - سأمنحك الثروة التى لا تفنى، والسلطان الذى لا يبيد.. سأجعلك ملك هذه الديار التى ترى.. ستكون صاحب عرش وتاج، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التى تحياها.. أنت جميل يا فتى.. وأنت بعـرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذى يثغو، وصمتت حيرا.. وجعل باريس يـقلب فى التفاحة ناظرية، وفى قلبه مما رأى وما سمع قلق عظيم..

لقد كانت حيرا تختال فى ثوبها الأولمبى الموشى، وكان طاووسها الجميل - الذى اتخذته منذ الأزل رمزا لها - يتشبث بناصيتها ويميس، فيزيدها جلالا وكبرياء.

وأوشك الفتى الراعى أن يقدم التفاحة لحيرا، لولا أن صاحت به مينرفا :

- «على رسلك أيها الشاب.. اسمع منا جميعا ثم اقض بيننا.. أنا لن ازخرف عليك بملك ولا سلطان، فأنت أعقل من أن تنخدع بالعرض الزائل. وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك، وهواك على قلبك، أنا مينرفا ربة الحكمة وآلهة الروح الأعلى المقدس.. سأمنحك السداد، سأكشف لك حجب الجهالة، وسيضىء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس، وأعلم الناس، وأحكم الناس».

وسكتت مينرفا، وسمع هاتف من جهة البحر يصيح :

«باريس، أعطها لمينرفا يا باريس..» وكانت أيونونية ما فى ذلك

شك!!

وكاد باريس يلقى بالتفاحة فى يدى مينرفا.. لولا أن تقدمت فينوس
الصناع.. فينوس الحلوة.. فينوس الساحرة.. فينوس ذات الدل..
فينوس التى تكفى غمزة مأكرة من طرفها الفاتر الساجى لإذلال الف
قلب. لولا أن تقدمت فينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه
حتى لا يقعان إلا على عينيها.. تقدمت فينوس ترنو وتبتسم، وتتبرج
وتهتز، وتشد هذا الصدر وتثنى هذا الذراع، وتميل برأسها الذى كله
خدود وعيون وأصداع.. تقدمت فينوس تبتسم للراعى الجميل عن فم
حلو رقيق، تتلألأ ثناياه، ويتضوع عبيره، وقالت : «باريس! هل لك
عينان تعرفان الغزل، وقلب يعرف الحب؟.. باريس أنا فينوس التى
صليت لها بالأمس، والتمست منها التوفيق.. هأنذا يا باريس التفاحة
للأجمل!

أست تحب أن أهبك أجمل زوجة فى العالم! ستكون زوجتك مثلى،
تغمرك بجمال لا حدود له، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش معها فى
جنة.. فتنة.. نظرات حلوة.. خد مورد.. أهداب كظلال الخلد.. عينان
نجلوان.. جسم ممشوق طويل.. زوجة ترضيك وتقى لك.. قلب ينبض
بحبك.. هاتها يا باريس هاتها يا حبيبى..»

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها، كان الفتى البائس، قد ألقى التفاحة
فى يديها الجميلتين، بالرغم من الصيحات المتتالية التى كانت تأتى إليه
من البحر، «لا يا باريس.. لا يا باريس.. أعطاها لمينرفا يا باريس..؟

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا، وكتبت التعاسة عليه وعلى
قومه ولم يلق أيونونيه بعدها..

باريس يعوده

- «أست تحن إلى وطنك، وتتمنى لو ترى
والديك يا باريس؟».

- «وطنى ووالدى؟».

- «.....؟.....».

- «وهل لى وطن غير هذه المروج الخضراء،
وولدان غير أبى الراعى وأمى المتداعية
الفانية؟»

- «مسكين!».

- «بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما! ولماذا؟
أليس أبى سيد هذه القلوات، وأمى أعز
الأمهات؟».

- «ذلك حق لو أن أباك هو هذا الراعى
يا باريس!».

- «ماذا تعنين؟».

- «أعنى أنك لست ابنة!..»

- «وى! لو لم تكونى فينوس لقتلتك!».

- «الحق أقول أيها العزيز!».

- «أنت تعذبيننى! ابن من اذن؟..»

- أترى إلى جمالك البارع وجسمك الممشوق السمهرى؟ أكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف؟»

- «...؟...»

- «أندور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك؟..»

- «سخرية وهزء.. الام تعذبين فؤادى يا ربة الحسن والحب؟ لأننى أعطيتك التفاحة الخالدة؟..»

- «الآلهة لا تكذب يا باريس!»

- «أنا؟.. أبى.. ملك؟.. هذا الراعى؟ ملك ماذا؟»

- «ليس هذا الراعى قلت لك!! أنت لست ابنه! أنت سليل الملوك الصيد!!..»

- «أذن من عسى أن يكون أبى؟..»

- «ملك طروادة!!..»

- «ملك طروادة أبى؟.. بريام؟..»

- «هو... هو...»

- «هاهاها.. ومن جاء بى إلى هنا؟ سرقونى؟.. أليس كذلك؟»

- لا تنس يا باريس أنك فى حضرة فينوس.. وأقولها لك مرة أخرى، إن الآلهة لا تكذب. أجل أنت ابن بريام ملك طروادة.. قيل له: إنك تجر عليه ألوانا من العذاب فصدق، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيدا لتأكلك الذئاب.. كل هذا إذ أنت طفل صغير.. وليد.. ولقد عثر بك ذلك الراعى الذى تحسبه أباك ففرح بك وقال لامراته، عسى أن يكون لنا منه ولد.. والآن.. لقد وعدتك زوجة جميلة.. أجمل امرأة فى العالم.. فاذهب أولا إلى طروادة، والى أباك فإنه سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك.. وسيحدثه قلبه.. وتكلمه روحك أنك ابنه.. سيفرح بك بريام

يا باريِس، وسيخفق قلب هكيوبا.. أمك التي تبكى من أجلك، وتتمناك
بنصف ملكها!

فإذا اطمأنوا إليك، ولبثت فيهم أياما، فابد لهم رغبتك في الإبحار
إلى بلاد الاغريق في أسطول كبير.. إلى أسبرطة.. أن هناك المرأة التي
وعدتك.. أجمل نساء العالم..»

وغابت فينوس وكأنما، ابتلعها الهواء!



وجلس باريِس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة،
وعلى السفح المعشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى، ثم أخذ
يفكر في كل كلمة انفجرت عنها شفتا فينوس..

«تري؟! صحيح ما قالت فينوس؟ صحيح أن بريام أبى؟ ألا أنادى
الراعى أبى بعد اليوم؟ وأنت أيتها الأغنام : أفراق لا لقاء بعده؟
وا أسفاه! لم لقيت فينوس؟ عزيز على أن أهجرك إلى الأبد أيتها
البطاح!..»

وأنت أيتها السماء الحبيبة «بم استبدل قلائدك الدرية في الليل،
وشمسك الدافئة، وسحبك الموشاه بالذهب في النهار؟!»

الآلهة لا تكذب!! هكذا كانت تقول فينوس! أنا أذن ابن ملك! وأبى
لا بد أن يكون غرا ضيق العطن، وإلا فلماذا صدق ما ذكرته له الكاهنة
عنى «طفل صغير ينبذ بالعراء لتأكله السباع..»

يا لقساوة القلوب، وتحجر الأكباد؟! وأمى؟ أين كانت أمى؟ وأين
كان قلب الأم في هذه المرأة «كيف سهل عليها أن تدعنى ينطلق بى
لأنبذ بالعراء، فريسة لا حول لها لكلاب الجبل، وطعمة شقية لسباع
البرية؟!..»

لا بد أن أذهب! لا بد أن أعلم حقيقة أمرى! وداعا أيها البحر!

وداعا أيتها المروج! يا كل شيء هنا.. وداعا.

وانطلق لا يلوى على شيء.

وكان أصدقاءه الرعاة يلقونه فى الطريق فينكرون منه كل شيء! ينكرون منه انقباضه، وعهدهم به طلق المحيا لا يفارق المرح ثغره البسام، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذى لا يقف لسانه ولا تسكن شفاته! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب..

وكان هو ينكرهم جميعا كذلك! أليس قد عرف أنه ابن ملك؟ وابن أى ملوك العالم؟ ابن ملك طروادة! وهل أقوى وأعظم فى ملوك العالم من ملك طروادة؟

وبالرغم من هذا الانكار كان الرعاة لا يبرحون يحبون باريس ويعجبون به، وقد أحزنهم أن ينطلق فريدا وحيدا فى فلولات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش، فذهبوا يقتفون أثره، وكانوا له حرسا شديدا فى وحشة هذه البرية المخوفة..

ووصل إلى طروادة..

وجلس فوق هضبة مرتفعة قليلا فنظر إلى المدينة الخالدة واجتمع حوله أصدقاءه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد، ولم هجر قطعانه وأوطانه، وهل فى أمره.. حب..؟

وطمأنهم باريس. وزوَّق لهم الأحلام والأمانى، ووعدهم خيرا «لا ترى مثله عين، ولا يخطر على قلب بشر».

ودخلوا المدينة.

ويمموا نحو ميدانها الرحب الفسيح، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضى، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التى يمارسها أبطال طروادة وما جاورها من القرى، ولبت باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة، ثم زهاهم الروح الرياضى فقدموا

أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب، فأشركهم في كثير من المباريات.

ولقد برز باريس على أقرانه، وبذ كل من تبارى معه في مضمار حتى لفت إليه أعين النظار، وأصبح موضوع إعجاب الحاضرين.

وكانت الأسرة الملكية، الملك وزوجته وأبناؤه وحاشيته، يحدقون في الفتى مشدوهين مأخوذين، وكانت الملكة بخاصة تحس كأن رباطا روحانيا يجذبها إلى الناحية التي يجول باريس فيها ويصول، بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب في عضلات البطل، إنما يتدفق من عضلاتها هي! وأعجب من ذلك جميعا، ذلك الحنان المتفجر في قلبها، وذاك الحب الحزين السادر الذي يغمرها كلها من أجل هذا الغريب المفاجيء المجهول!.

ولمحت كاسندرا، ابنة الملك ما كان ينتاب أمها من عواطف، وكانت فتاة بارعة الحسن مليحة القد، فينانة ريانة، أعجب بها أبوللو فمنحها حبه، وهام بها حتى لكان يعبدها عبادة، وهو الإله المعبود!

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه، فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب، والتنبؤ بما كان وما يكون، فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم، وهم يسمعون ويعجبون..

ولكنها تاهت على أبوللو ودلت وكانت أبدا تمنحه الجفاء والصدود، وتعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وبشعره وموسيقاه!

رجاها أبوللو أن تكون له، وأن ترتضيه لها بعلا، ووعدا لقاء ذلك أن يبني لها القصور الشماء قى قبة السماء، وأن يحملها معه أبدا في رحلاته العلوية فوق مركب الشمس، فتري كل ما يدب على الأرض. وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود، وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم.. بيد أنها ما كانت تزداد إلا شماسا وعنادا.

ولما ضاق أبوللو بها ذرعاً، صب جام غضبه عليها، وسلط عليها
سخرية سامعيتها، فما تقول شيئاً، ولا تتنبأ بشيء ولا تكشف غيباً، إلا
استهزأ بها الناس، وعيروها بأنها تكذب وتهرف وتدعى!

فلما شاهدت ما كان من فوره الاحساس التي تجرف قلب أمها من
أجل باريس، ذكرت أن هذا الشاب ما هو إلا أخوها الذي نبذوه بالعرء
فوق الجبل لتأكله السباع، وآيتها على ذلك هذا التشابه الشديد بينه
وبين أبيها الملك. وحاجها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين
هكتور.. ولكن المطابقة ما كادت تتم حتى أخذت هكيوبا في حضنها
الحنون المرتجف، صائحة معبدة: «ولدى باريس.. ابني باريس..
ولدى.. إلى إلى يا بني..!». أما الملك فقد بكى هو الآخر، ونهض فعانق
ابنه عناقاً طويلاً حاراً، غاسلاً جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار
عن الماضي البعيد المحزن.

ولما أخبرهم باريس أن فينوس، ربه الحب والحسن، هي التي هدته
إلى مولده ومنتشئه وكريم أرومته، خر الملك وأهله ساجدين.. إلا
كاسندرا..

لقد عبست عبوسة قاتمة، وحذجت أياها الغريب بنظرة كالحة! ثم
صاحت بالملك: «أبي! لتحذر هذا الاخ.. لتحذر باريس.. ولتذكر نبوءة
الكاهنة في معبد أبوللو.. ابنك يجر الخراب على مملكته ويعرض شعبك
للدمار، وينشر الموت في بيوت رعاياك!»

وهنا ينتقم أبوللو، ويسخر من حبيبته الجافية!

لقد تضاحك الملك مستهزئاً، وغمزت الملكة ابنتها، ولمزتها بكلام
قارص. أما هكتور، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحاً ثقيلاً.

مسكينة كاسندرا!

حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها المذلة والهوان.

كل ذلك والرعاة.. أصدقاء باريس.. ينظرون ويعجبون ولا يفهمون!



أفرخ روع باريس اذن وصدق كل ما ذكرته فينوس!

الآلهة لا تكذب!

«ها هو ذا يعيش في قصر منيف باذخ، وها هو ذا لأول مرة في حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ، ليلبس من سندس أبيض واستبرق! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضه، وصحاف الأكال من ذهب» وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه، وجيوش تصدع بأمره، وأساطيل لجب تملأ البحر، إن شاء أرسى، وإن شاء أقلعت، وملك وسلطان، وتاج وصولجان!

لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة في العالم..

تلك الفتاة التي وعدته فينوس! ومادامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة في العالم هي من غير ريب في بلاد الإغريق.. لأن فينوس أوصته بوجوب الإبحار إليها.. وهل أجمل من حسان أسبرطة في بلاد الإغريق؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام.

اذن فليبحر باريس إلى أسبرطة!

إلى أسبرطة

- «سمعت يا أبى قصة أختك المعذبة
«هسيونية» إذ أنا أرعى الشاء والبهم، فكان
قلبي يتفطر أسى، كيف يسكت شعب عظيم
كشعب طروادة على إهانة تصيبه فى الصميم
من شرقه، وعار ليس أيسر من دفعه، ولكنه
يفضى عليه، وينام عنه، كأن العزة القومية عند
أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة، أو حلما
لا يدور لهم بخلد؟!»

- «حسبك يا باريس. حسبك يا بنى. إنها
محنة كتبت على طروادة صنعها جدك بيديه».

- «جدى؟»

- «أجل! جدك.. أبى.. أبى لا يوميدون، هو
الذى نكت بعده لبطل الأبطال هرقل.. الرجل
العظيم الذى أنقذه هسيونية من براثن هذا
الوحش البحرى الهائل.. الوحش الذى فتك
بعذارى طروادة.. لقد أعلن أبى أن من يقتل هذا
التنين فإنه يتزوج هسيونية.. ولما قتله هرقل
العظيم»..

- «رفض والدك أن يزوجها منه!».

– «هو ذاك!».

– «لم أسمع بهذا من قبل.. ولكن كيف سمحتم لهرقل ومثله أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعداء من أفراد البيت الملكى».

– «كنت طفلاً.. وقد كنت بعض هذا السبى.. ثم من ذا الذى كان يستطيع دفع هرقل أقوى أبناء زيوس، وصاحب المجازفات الخرافية!.. من كان يستطيع حماية طروادة منه، بعد أن نكث الملك بوعده؟».

– «أنت كنت بعض السبى؟ أنت يا أبى؟».

– «أجل يا باريس وقضيت فى أيدي أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابى! لله كم كانوا كرماء حقاً؟..».

– «وكيف عدت إلى طروادة إذن؟».

– «مات أبى بعد حياة مفعمة بالمتاعب، ولم يكن له ولى عهد غيرى، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطلبوننى ملكاً عليهم بأى ثمن.. ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء.. لقد أعادونى معززا مكرما إلى وطنى، بعد إذ أخذ خصومتهم موت هرقل».

– «ولم تعد عمتى هسيونيه يا أبتاه؟».

– «تزوجها تيلامون يا بنى، واحسبها الآن إيما».

– «ذلك أدعى لعودتها.. أنها لا شك تتعذب فى دار غربتها.. مسكينة! إن حدائق الخلد لا تجدى نفعا إذا كانت سجننا لأحدنا!».

– «هذا حق يا بنى.. ومثلها القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون».

– «أنا حزين يا أبتاه.. لابد أن تعود عمتى.. أفتأذن لى فى الإبحار إلى هيلاس؟ إذا أذنت، فلن أعود إلا بها».



«الآلهة لا تكذب».

هكذا قالت فينوس، وإذا كانت الآلهة لا تكذب، فلن يكذب أبوللو..
لا بد أن تصدق النبوءة القديمة، لا بد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر
الخراب على طروادة، وليخيم الموت فى دورها جميعا.
الآلهة لا تكذب.

لقد أبحر إلى أسبارطة فى يوم عاصف.. أسود من جبين الموت،
وأبرد من بطون القبور.. ولقد كان أسطوله اللجج يرقص على نواصى
الموج، كما يرقص الطائر المذبوح فى قبضة الفناء .
هيلين (١)

ثمرة الحب الأوليمبي الساخر.. ابنة زيوس الغزل، زير النساء، من
ليدا الفاتنة التى حولها حبيبها كبير الآلهة، وسيد أرباب الأولمب، إلى
بجعة بيضاء تتهاذى فى مرايا المستنقعات والغدران، ليسهل عليه
لقاؤها دون عزول.. أو رقيب، ولقد ولدت له هذه الطفلة التى كانت
كقطرة المداد يمهز بها إعلان الحرب.

شبت هيلين وشبت فى اثرها شياطين الفتنة، وكبرت، وكثرت تحت
قدميها مصارع العشاق.

لقد كان جمالها أسطورة مصورة فى السحب، موشاة بذهب
الأصيل.. كانت نظراتها تتغذى بأرواح المحبين فى غير شره. وترتوى
بماء حياتهم فى غير نهم.. وإن كان محبوبها ليحصون بالآلاف.

وهى لم تعتمد يوما إلى قتل هذه الأرواح المظلومة، ولم يكن ذنبها
كذلك أن تنظر فتصرع، أو تنعس فتصمى.. ولكن القتل كان يذهب
بأرواح محبيها عفوا كلما نظرت هنا أو هناك.. وذلك هو القتل البرىء.

وكان لها قم شتيت حلو، أودعت فيه السماء أسرارها، وصبغته

(١) ميلين أو ميلانة أخت كليتمسترا من أشهر الشخصيات الكلاسيكية.

عرائس (١) الفنون بحمرة الفتنة.. فهو دائماً يبتسم، وكل ابتسامة منه تحيي وتميت.

وخداها الأسيلان كذلك.. لقد كانت لهما نعومة ولمحة و «فونة» (٢) خلابة، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف.

ثم عنقها الطويل البلورى الشفاف، وجيدها الممتلىء الخصب، وجسدها الرخص المرمدى، وساقاها الملتفتان، ويختلط فى بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد.

هذه هي هيلين.

فإذا فترت العينين، وأرخيت الأهداب الكحيلة السوداء ذات الوطف، وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد، والفم النضيد، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب، وأثقال الهوى.. رأيت التمثال المعبود الذى خلب ألباب أمراء هيلاس، وأجج قلوبهم بالفتنة، وقرح أجفانهم بالسهاد.



لم تنشأ هيلين مع ذلك فى حجور الآلهة.. فقد تزوجت أمها، بعد أن هجرها زيوس، من تنداريوس أحد أمراء هيلاس، فترعرعت الطفلة فى مهاد النعمة، وسعدت بالهناء والعيش المخفرج، حتى كانت هيلين التى رأيت؟!

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الإغريق ونبلائهم، ولكن أحدا منهم لم تقبله هيلين بعلا لها.. لا لعب فيهم.. ولكن القلب!

أجل، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة إلا لكل جميل رائع، ولما لم يكن فى كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها، فقد رفضتهم جميعا.. وعلة ذاك هذا الدم المتكبر الذى يجرى فى عروقها،

(١) Muses

(٢) للخد البارز المستدير خط مما يلي الأنف يزيد عرائس الفنون التسع جمالا، وقد أطلق عليه بعض الكتاب «فونة» ودعاه بعضهم «قسمة».

وذاك الجمال المعبود الذى كان أكثر من أن يجرى فى امرأة واحدة!

وجرت الألسن فى هيلين، وجمال هيلين، وأحباب هيلين..
والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم، ولقى
زوج أمها من جراء ذلك هولا شديدا ورهقا.

تحدثوا أن خطاب هيلين، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانهم وذوو
الصولة والجبروت فيها، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج
أمها، يطمع كل منهم أن يفوز هو بهذه الغادة ذات المفاتن، التى أذلت
الأعناق العريضة ورغمت بها الأنوف الاغريقية السماء.

وخشى تنداريوس أن تنشب الحرب بينهم، لو أن هيلين قبلت
أحدهم زوجا لها دون الآخرين.. وأسقط فى يده حين تقدم منلوس ملك
أسبارطة، وسليل الآلهة أيضا، إلى هيلين يطلب يدها.. فلما أسرت الفتاة
إلى زوج أمها أنها ترضى ملك أسبارطة بعلا لها، تضاعف فزعه
وازدادت خشيته، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئا فإن أمراء
هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألداء، وهو لا حول له بعداوة
أحدهم بمفرده ولا قوة!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة..

لقد أقام حفلا شائقا دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين، وبالح
فى اكرامهم والاحتراف بهم، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من
أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق فى انجاز شيء مما أقدموا عليه
واختلفوا فيه.. «فإن بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون زوجا
من دونكم انقلبتم على أعقابكم، وشرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة،
فقتلتموه أو فضحتموه فى عرضه، وجعلتم اسم هذا البيت الكريم
مضغة فى أفواه الهيلانيين وجيرانهم! إننا نريد أن نتقى هذا الشر فلا
يستطير، ونتدارك الأمر فلا ندعه همجية بيننا، ولن أكلفكم فى سبيل
ذلك شططا.. يمين - يا سادة - صادقة، تقسمونها فتكون عهد الوفاء
بيننا، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين، وأن تكونوا يدا على من

يحدث ولو كان أعزكم جانبا وأكثركم قوة.. بل لنتفق جميعا على أمر يكون أهم مما أشرت إليه، أن نكون يدا على من تحدثه نفسه بالاضرار بهيلين أو بسببها، فقد تحدث إلى من عنده علم، أن بعضكم ينتوى هذه النية السوداء.. ينتوى أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلا لها.. وأنتم أيها السادة النجب من عليّة الاغريق وجيرة الأولمب، أفترضون أن يحدث هذا الحدث فى أمر كلكم شاركتم فيه من قبل؟..».

ويجيب المدعوون فى صوت واحد : «حاشا حاشا».. لنقسم جميعا..

وأشرفت هيلين على الملأ، وكادوا يفتنون بعد أن أقسموا، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقى الرنان.. تختار ملك أسبارطة، الملك منلوس، ليكون زوجها الوفى الأمين!

وطاطأوا رؤوسهم.. وانصرف أحدهم فى أثر الآخر.



رسا أسطول باريس فى مرفأ ليسديمونيا ^(١) الأمين، وخرج الأسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن بريام العظيم، حيث شاع أنه ينزل ضيفا كريما على صاحبى العرش، فيلبث أياما فى ضيافتهما ثم يعود أدراجه إلى طروادة مصطحبا عمته الأيم هسيونيه!

وتقدم الملك والملكة فسما على الضيف الشاب، وتحرك الموكب الكبير فى طريق حفت بالشعب الطروب، وفرشت بأوراق الورود، وتأرجت فى جنباتها أنواع الرياحين.. وكانت فرق الموسيقى تعزف هنا وهناك، فتراقص الحانها العذبة حبات القلوب.. وكم كان جميلا رائعا انشاد الجنود وقد وقفوا صفوفًا صفوفًا، كلما مر الموكب الملكى بفرقة منهم دوى هتافهم حتى يبلغ عنان السماء.. فلما فرغوا وصلت

(١) أوليقديمونيا عاصمة أسبارطة قديما، ويطلق هذا الاسم على أسبارطة نفسها.

هتافاتهم فرقة ثانية .. وهكذا.

وكان سرب من أجمل قيان اليونان وحسانها يحيط بالملكة الجميلة وقد قصرن ثيابهن، وأرسلن شعورهن، فبدون فتنة الركب، وكن سحر الموكب.. ولفتن من باريس بصره وسمعه وفؤاده!

وكان الفتى يخالسهن نظرات شغوف، وكن بدورهن يتسمن له ويتبرجن، حتى التقت عيناه بعيني الملكة.. فنسى نفسه!

لقد خيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذى بين جنبيه، ليتأرجح فى مقلتيه!.. أين أرى هذه الملكة من قبل يا ترى؟ إنه لم يذهب إلى الأولمب قط! وهل لبشرى أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هذا الجمال الساحر، والحسن الفتان؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب باريس فى قوة وعنف، حين أدركت رسل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها!.. فلما التقت عينها بعينه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مراش من عينيها الساجيتين، انطلق إلى جوانحه فى برق من بسماتها.. ورجود..
لقد زلزل قلبه..

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمى هيلين! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل.. ولكن بلا جدوى.
ثم بدت له فينوس بحيث لا يراها أحد غيره.. وقالت له :
«هى..هى.. كن شجاعا».. ثم غابت ربة الحسن.

فذكر ماضيه القريب، وذكر ما وعدته به فينوس، وذكر أن هيلين إن هى إلا صورة أرضية، سماوية، من ربة الحب.. وإنها مخلوقة كخلقها، عذوبة روح، ورقة نفس، ودفع دم، وسحر عيون.. فصمم على أن تكون له!



ولبت باريس فى ضيافة الملك أياما كانت تنصرم كأطياف الأحلام!.. ثم حدث حادث جل فى أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رآيه فيه، فلما كان يوم السفر ودع منلوس زوجته الحسنة، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم : باريس «ابن صديقى ملك طروادة»! فطمأنته هيلين وخرجت تودعه، حتى إذا كانت عند أسوار ليسدمونيا حيته تحية فاترة.. وعادت لترعى عصفورها الغريد!

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة، وأقبل هو عليها فى غير وجل.. أقبلت عليه تؤانسسه كما أوصاها زوجها.. وأقبل هو عليها يغازلها، ويبحث فيها عن أجمل امرأة فى العالم كما وعدته فينوس!

«هى هى.. كن شجاعا».. هكذا كانت تتردد هذه العبارة المقتضبة فى أذنى باريس كلما ذكر الوفاء، وشكران الجميل.. وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضيف الذى احتفى به وأكرم مثواه.

«هى هى.. كن شجاعا».. اذن فليكن باريس شجاعا كما أمرته فينوس! ليقترب من هيلين فى هذه الخلوات الحلوة التى تمن عليه بها، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات؟

ليقترب منها، ولتصب هى سلسبيلا من الموسيقى فى أذنيه المرهفتين إلى كل كلمة من كلماتها.. وليرشف هو هذا السحر حتى تشمل روحه، ويسكر قلبه، وتزيغ عيناه!

لقد وقف كل منهما أمام صاحبه كأن شيئا كان يدفعهما دفعا، أجل.. لقد كان هذا الشيء هو يد المقادير التى كانت تلعب وراء الحجب.. المقادير التى تعمل عملها من وراء ستار، حتى لا تراها، وحتى تنفذ ما كتبتة فى ألواحها.. لا نستطيع له دفاعا، ولا نستطيع له ردا..



لقد وقف كل منهما أمام صاحبه ليسمع إلى لغة المقادير فى الأعين

المغرورة بالدموع، وخفقات القلب التى تقول ما لا يفهم.
لقد كان كل منهما يحملق فى عيني الآخر، وكأنه كان يبحث عن
شئ قديم عزيز ضائع.
ترى؟ ماذا كان هذا الشئ؟
علم ذلك عند فينوس.
وعلمه فى لوح القضاء والقدر.



- «ألا يسرك يا هيلين أن نعيش معا أبدا الدهر؟».
- «ألا يسرنى؟! ما السرور اذن يا حبيبى باريس؟».
- «اذن فلنرحل فى ظلام الفجر».
- «إلى أين؟».
- «إلى طروادة».



وأقلع الأسطول فى غبشة البكور يحمل.. هيلين.
وعفا الحب على عمة باريس، عفا الحب على الأيم هسيونيه.

التعبئة

عاد منلوس من رحلته فى الحدود، وليته لم
يعد!

لقد جن جنونه حينما علم من أمر زوجه
وضيفه ما علم.

«علام اذن كانت كل هذه الضجة، التى
أحدثتها تلك اللعينة قبيل زواجنا لقد تركت
خطابها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها،
وظلت تتيه وتدل و تتأبى وترفض، وفيهم
شجعان هيلاس وحماتها وأباتها، وملوكها
الصيد، وفرسانها الصناديد».

فيم اذن كانت كل هذه الضجة؟.

هل منحتنى جسمها فقط يوم اختارتنى بعلا
لها؟ وهل ذخرت قلبها للحب الأثيم، والهوى
الفاجر، حتى ترزقها شياطين الفتنة هذا الشاب
الغرائق، اللاهى المستهتر، فراحت تقدمه فوق
مذبح جمالها قربانا لهواها النجس، وتقدمه
لشبابها الرجيم؟ وا حريا، هل اختارتنى بعلا
لها، لا لشيء، إلا أننى ملك وسليل آلهة؟.

يا للفاجرة!

أفى ذلك البيت الرفيع الذرى، ظلت تتقلب الناعسة فى ضلالات
الخيانة، وظلمات الإثم؟

أيتها الجدران الحزينة، كم كلمة دنسة أصمت آذانك، وكم صرخة
فاجرة دوت كالرعد فى حناياك؟ حدثنى أيها الهواء المسموم عما كنت
تشهد فى صميمها، حين كانا يتفثانك من صدريهما سما قتالا.. خبرى
أيتها الستائر، أيتها المصابيح، يا شموع قصرى، أيتها الأرض الملوثة،
أيها العرش المهين، أيها التاج الذليل، أيتها الكؤوس المتناثرة، والأكواب
المقلوبة.. تحدثنى إلى!

حدثنى يا كل شىء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف! أه!
الشرف؟ الخرافة الكبرى!

الحرب! الحرب! الانتقام! من الفاجرة.. اقتلوا الخائن.. يا حلفائى..
تنداريوس.. ادع حلفاءك.. لقد أقسموا جميعا.. لقد كانت تتوقع هذه
النهاية يا تنداريوس.. استيقظ.. استيقظى يا أسبارطة.. جنودى
شعبى.. هلموا إلى..»

وهكذا أرسلها منلوس صرخة تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء.
هيلاس، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها.. إلا القليل.

لقد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداريوس، وصدقوا
يمينهم التى أقسموا، فلبوا سراعاً، وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة
تعج بالجنود وتضج بآلات الحرب، واضطربت البحار بالأساطيل، تيمم
شطر أوليس^(١)، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول
المتحد، فلا يرسو إلا فى مياه طروادة.

ولبى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين، فهرعوا من
المشارك والمغارب بخيلهم ورجلهم.. إلا ملك ايثاكا.. أوليسيز^(٢).

(١) أوليس ثغر كبير فى مقاطعة بوطيه (التى كانت طيبة حاضرتها قديما)
(٢) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عولس) لحوشيتها وبدلا من أوليسيس أو
بوليسيس لتكرار السين. ويسمى أيضا أوديسيوس وبها دعونه فى قصة الأوديسة.

أوليسيز

كبر فى نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة
هيلين فترفضه فيمن رفضت، وهو مع ذاك ملك
ايتاكا وبطلها الحلال، وفارس هيلاس الذى
لا يشق له غبار.. وكبر فى نفسه أن تؤثر عليه
منلوس، وهو مع ذلك دونه شجاعة وأقل منه
اقداما حين يثار النقع وتستعر الحرب وكبر فى
نفسه أيضا ألا تكون له زوجة يفاخر بها
ويزهى على كل جميلة فى العالمين. فذهب من
فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة
بنلوب : «الزهرة التى تهتز للندى، وترقص
لخيوط الشمس الذهبية، وتغنى مع الأطياف،
ويسكر النسيم إذا داعب خديها.. قبلة الحب
الخالدة على خدود الجمال الطليق، وابتسامة
السماء الضاحكة فى قلوب المحبين المعذبين.
بنلوب، الوديعه كالأطفال الحلوة كالرضا،
الصافية كقطرة الندى بين أوراق الورد، المرحه
كسطور الغرام فى خطاب الحب.. بنلوب.. التى
تفخر الأرض بأن تحملها.. والهواء بأن
تستنشق.. والسماء بأنها تظللها وتشرف عليها
والجبل بأنها تنظر إليه.. والبحر بأنه يغسل
قدميها المعبودتين.

بنلوب: ذات الفم العطري، والخذ اللامع المورد، والجبين الناصع
الوضاح، والعنق الناهضة الجيداء.. ربينة الآلهة، ولمحة الأولمب
وبندورا الثانية..».

تزوج أوليسيز من بنلوب هذه فأخلصت له الحب، وأصفاها المودة
والغرام، وولدت له طفله الجميل المتلألئ تليماخوس «تليماك»، فزادت
محبتها له، وتضاعفت عبادته لها، بعد هذا الرباط القدسي الكريم.

عز على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز
المحبوب، لا لشيء يجرى عليه مغنما أو رفعة، ولكن ليحارب حرباً
لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهى، فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو
الأسر فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزنة، ويحيا الطفل يتيماً مفجعاً..
وثن من ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام؟ ثمن امرأة أذلت سادة
هيلاس، وجرحت كبرياء زوجها، وفضحت أباهـا. ثم هتكت عرضها، إذا
كان لها عرض، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم.

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته فى هذه الحرب اذن ولو
كان فى ذلك كله أو بعضه، الحنث العظيم.. فما يمين شرف هذه التى
يتمسك بها ملك كبير كملك ايثاكا، من أجل امرأة ليس لها شرف؟

ليقعد اذن عن هذه الحرب، وليصم أذنيه دون صيحتها الكبرى، فإذا
ألح عليه الملحون.. فليتظاهر بأنه مجنون مأفون.. لا تهديه مسكة من
عقل ولا ترشده إثارة من تفكير.

ارسلوا إليه رسولهم السياسى الكبير بالاميدز يحضه على الحرب
ويذكره بيمينه التى آلاها، ويحرضه على «الطرواديين اللؤماء» الذين
يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين فى أعراضهم»، ولكنه ألفاه يحرث
شاطئ البحر بمحراث هائل يجره ثور ذو خوار.. وحصان عربى
أصيل!

- «عم صباحا أيها الملك..»

– «...!...».

– «ماذا يصنع مولاي؟».

– «أحرث هذا الحقل الخصيب!».

– «أى حقل؟».

– «الحقل الذى ترى.. أليس لك عينان تسمع بهما، وأذنان تريان ما أفعل؟».

– «عينان تسمعان، وأذنان تريان؟».

– «اذهب.. لا تشغلنى.. أريد أن أبذر حقلى هذا الصباح».

– «وماذا عساك أن تبذر أيها الملك».

– «لست ملكا فلا تهزأ بى.. نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا، اذهب، اذهب».

– «وماذا عسيت أن تزرع؟».

– «سأزرع ملحاً؟!».

– «تزرع ملحاً؟ وتحصد ماذا؟».

– «أزرع ملحاً، وأحصد سمكاً، هها.. لا.. لا.. سأحصد بأذنجانا.. ولكن لماذا تقف هكذا قريباً منى؟ لماذا لا تذهب؟».

– «ألا تعرفنى يا مولاي؟».

– «أرجوك، أنا لست مولاك ولا مولى أحد، اذهب ودعنى أشتغل».

– «أنا بالاميدز يا مولاي! وا أسفاه! إن هيلاس كلها تنتظرک ليومها المشهود».

– «تنتظرنى؟ إنها لابد جائعة، يا بالا، يا باما، يا بلاديز».

- «لست بالاميدز يا مولاي! أنا بالاميدز».
- «بالاميدز : هذا عجيب! تعال اذن فاعمل معي.. سأسأ^(١)».
- «الحرب يا مولاي، الأساطيل فى أوليس!».
- «أى حرب وأى أساطيل يا رجل ؟».
- «سنحارب طرودة!».
- «ولمَ لم تذهبوا بعد؟».
- «نريد أن تكون معنا، فالكل يهتف بك ويدعوك؟».
- «يدعوننى أنا؟.. أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحا؟ وماذا أصنع فى الحرب؟ هل أخبروك أنتى فارس؟ اذهب اذهب.. سأسأ.. سأسأ».
- «ألا تعرف من أنت يا مولاي؟».
- «وهل تعرف أنت من أنت؟».
- «أنا بالاميدز، وأنت؟».
- «أنا» أتريد أن ترسل اسمى إلى ميدان؟.. أتركنى بغير اسم يا رجل؟».
- لم يستطع بالاميدز أن يفوز من أوليسيز بطائل، فقد مثل ملك ايثاكا دور المجنون تمثيلا متقنا يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لا شاة له فيها ولا جمل، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض.. بيد أن بالاميدز لم ييأس حين رأى ما شاهده من جنون الملك، فإن وسواسا وقر فى قلبه أن هذه البله قد يكون تبالها، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من

(١) سأسأ بالحمار دعاه للشرب أو بالانصراف أو للعمل والسير.

أرزاء الحرب وأهوالها، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التي أقسمها عشاق هيلين.

كذلك لجأ بالاميدز إلى الحيلة هو الآخر، فانقطع أياما ظل يرقب الملك فيها عن كثب، بحيث لا يراه أوليسين، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولا بأول إلى رئيس البلاد، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه.. الذى يفطن إلى مكر بالاميدز فيبالغ فى ادعاء الجنون، وينزل إلى البحر يحرث موجه. بعد إذا فرغ من حرث شاطئه! ويسقط فى يد بالاميدز فيطلق آخر سهم فى كنانته.

ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير، ولى عهد أوليسين، والأعز عليه من نفسه، ومن الدنيا وما فيها؟!!

سرقه فذهب به إلى حيث والده، يحرث الشاطئ ويحرث البحر، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون من جنون الملك، هل يقتل ابنه، ويكون بذلك مجنونا حقا، أو يتفاداه ويكون جنونه محض ادعاء، وبلهه تلفيقا فى تلفيق.

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده، وقرة عينه، من أن تتم فيه حيله بالاميدز الداهية! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت، لوى عنان الثور وذاد الفرس، متفاديا الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر.

فتضاحك بالاميدز، وفضح جنون الملك، وأخجل حيلته.. ثم لم يزل به حاضا محرضا، حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع اخوانه الهيلانيين.

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أوليس، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى، فاختير ابن اشمس البكر «أجاممنون» شقيق منلوس وصفيه، بالاجماع.

أختير أجاممنون للقيادة العامة وإن لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى، وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسيز العظيم ملك ايثاكا وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان، وديوميديز المحارب الصنديد إلى آخر هذه العصابة المختارة من جيرة الأولمب، والسادة النجب من فرسان هيلاس.

اختير أجاممنون اذن لأنه شقيق منلوس وممثله فى هذه الحرب، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سنا، وهو مع ذاك أحد شجعان هيلاس المعدودين.

انتظمت صفوف الجند، وأخذوا فى تمرين عنيف أياما معدودات، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم، وظلوا ينتظرون اذن القائد الأعلى أمير البر والبحر، بالاقلاع، فتجرى بهم الجوارى المنشئات فى موج كالجبال.. إلى طروادة!.. يحملون إليها المنايا الصفر، والغوائل السود فى شفار المشرفيات البيض.

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالاقلاع.

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربى أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار، أو الهزيمة والانكسار؟ ليكونوا من أمرهم على بينة، وليكونوا أيضا قد استخاروا أربابهم فتخير لهم. واستشاروها فتخلص لهم المشورة وليمضوا بعد ذلك على بركتها وفى حراستها.

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ونفوس مبهتة . ومضت أيام.

ثم رأوا تيرزياس كاهن المعبد يدلف نحوهم فى هدأة فجر صامت فشخصت أبصارهم إليه، وظنوا به الظنون.

وجلس الكاهن المسن، يقلب فى القادة عينيه الكبيرتين، وصمت

لحظة ثم قال : « أين ابن بليوس أيها الملا ؟ »
ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا..
فقال الكاهن : « أين ابن بليينوس رب الأعماق، من زوجه ذيتيس؟
أليس فيكم أخيل؟ »
فأجاب أجاممنون : « ومن أخيل أيها الأب المقدس؟ »
فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التي قالت فيها ربات الأقدار أنها تلد
غلاما يكشف مجده مجد أبيه. أبحثوا عنه، فلن تفتح طروادة إلا أن
يكون معكم. ولن ينفعكم أن تذهبوا بدونه.. هكذا قالت الآلهة.

أخيـل

شده القوم، ونظر بعضهم إلى بعض،
ونهض الكاهن الوقور ذو اللحية المرتعشة
يضرب في غبشة الصبح، متكئا على عكازه
الذي أحنته وأحنت صاحبه السنون. ولم يك
يتسنى ذروة الجبل حتى أشرقت ذكاء، فاختلط
ذهب أشعتها بفضة لحيته، فزادته رهبة، وزاده
البعد وقارا، وملا بهامته السامقة وطيلسانه
القشيب، قلوب العسكر، وعيون القادة، ألغازا
وأسرارا..



عاشت ذيتيس في كنف بليوس قانعة
راضية. لا يعنيه من هذا العالم الرحب إلا
الجنين الحبيب الذي يتقلب في أحشائها، فتقلب
معه أكبر الآمال.

ومضت شهور.. ووضعته غلاما بكاء كثير
الصخب، يضم الهواء برجليه الصغيرتين، كأنما
يضرب المشرقين والمغربيين، وينظر في السماء
العميقة بعينه الزرقاوين، وكأنما يبحث في
أغوارها عن جده.. ومجده! وتراه أمه وتبتسم.

وشب الغلام وأيفع، وتحديث إلى أمه

العرفات والكاشفات الغيب أنه سيكون محارباً عظيماً، تتحدث بذكره الركبان، وتتعطر باسمه المحافل في كل زمان ومكان، وأنه لابد من رحلة به إلى الدار الآخرة هيدز مملكة بلوتو - حيث تستطيع الأم غمس ابنها في أمواه ستيكس، نهر الخلود الزاخر، الذي أودعته الآلهة أسرارها، ونظم فيه شعراء الأولمب أشعاراً، واشتهرت بركاته في العالمين.

حدثنا أنها إذا غسلت ابنها في أمواه ستيكس، فإنها تكسب جسمه مناعة ضد الموت، وحفاظاً من الفناء، لأن جلده يصبح كالدرع المسروبة من حديد، لا تنفذ فيه السهام، ولا يؤثر فيه طعن القنا، ولا ضرب المشرفيات البيض.

ووقفت به على شواطئ ستيكس!

وهالها أن تنظر فترى المنايا تقفز على غوارب الموج، وتثب فوق نواصي الثبج، تدمدم كأنها الذئاب، وتهوى كأنها البواشق، وترقص ظللاً سوداً كأنها الجن.

لقد ريعت الأم المسكينة، وكادت تنتنئ بطفلها المعبود، اشفاقاً عليه من هول ما شاهدت.. بيد أن الطفل.. بيد أن أخيل الصغير، كان يصرخ وينتحب كلما بعدت به أمه عن النهر، في حين كان يهدأ ويبتسم كلما اقتربت به منه.. فتعجبت ذيتيس، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة فتغمر ابنها في مائه لحظة وتمضي لشأنها.

وكان الآلهة قد استجابت لتوسلاتها، فقد نامت الأمواج واستقر سطح الماء، وقالت ^(١) شياطين النهر المصطخب، فتقدمت الأم المضطربة حاملة ولدها من إحدى رجليه، وذكرت أربابها، مبهلة إليهم، وغمست أخيل في الماء الهاديء في أقل من لمح البصر، وعادت أدراجها فرحة متهللة.

(١) من القيلولة أي النوم في الحر.

إلا أن جزاء واحدا من جسم أخيل لم يغمره الماء؟

ذلك هو عقب قدمه اليسرى، فيا للهول!

ثم أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للسنتور العظيم شيرون، مؤدب هرقل ومدربه، يلقنه الفنون الحربية، وينشئه على أعمال الفروسية، ويبيت فيه ذلك الروح الكبير، الذى بثه فى سائر تلاميذه من قبل، فكانوا فرسان كل حلبة، وصناديد كل ميدان، ولقد نبغ أخيل فى استعمال السيف، واللعب بالرمح، وتوتير القسى، وثقف حيل المصارعة والملاكمة وقصارى القول : أصبح فتى زمانه، والهلع الملقى فى قلوب أنداده وأقرانه، إن كان له أنداد وأقران.

وعاد إلى أمه فاحتفت به، وذهبت من فورها هذا إلى العرافات القدامى، وكهنة المعبد، فاستوحتهم ما عسى أن يكون فى كتاب الغيب من حظ لابنها فى الميدان.

ولكنها حزنت، ودهاها من الهم ما دهاها، حين قال الكاهن الأكبر، مؤمنا على ما تنبأت به العرافات، من أن أخيل سيدعى للقتال فى صفوف الاغريق، وإنه سيلقى حتفه تحت أسوار طروادة، بسهم يرميه به ألد أعدائه، يصيب منه مقتلا فى موضع دقيق من جسمه هو، وا أسفاه، عقب قدمه اليسرى، التى لم تغمرها مياه ستيكس.

حزنت ذيتيس، وتجهمت للحياة المشرقة، وتجهمت لها، وآلت ألا أن تحول بين ابنها وبين حملة طروادة التى كانت الصيحة لها تجوب آفاق هيلاس فى تلك الآونة.

وجلست تفكر..

وبدا لها أن ترسل بأخيل، حيث يحل ضيفا على ليقوميدس، ملك سيروس الكريم المضياف، وأن تنتحل الأعذار الواهية، فتعرض على الملك أن يسمح لولدها بالتنكر، بأن يصفف طرته ويرسل غدائره، ويزجج عينيه وحاجبيه، ويصبغ خديه وشفتيه، ويضفى عليه من وسى

العرائس وأفواف الإناث، وحبر القيان الغيد، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه! تحسب المسكينة أنها بذلك تعفيه مما قدر له، وهو أينما كان يدركه القتل، ولو كان فى برج مشيد!



واشتد طلب الاغريق لأخيل، ولبت الأسطول الضخم يرقب مجيئه فى كل لحظة عدة أيام، وخشى أجاممنون إن هو أقلع بالفلك، ورسا عند شطآن طروادة أن ترسل الآلهة ريحا صرصرا تسخرها عليه، فتأتى على أسطوله، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطا أبدا، لا يتقدم، ولا يتأخر وتكون اقامته ثمة بالهزيمة أشبه، وإلى الانخزال أقرب. فأخذ يبعث الرسول تلو الرسول للبحث عن أخيل، الذى أنبأت الآلهة أن فتح طروادة مستحيل بدونه، ولكن عبثا حاول أحد من الرسل العثور بأخيل أو ظل أخيل، بل كانوا يعودون جميعا وهم يتعثرون بأذيال الخيبة، ويللمون أطراف الفشل.

وهنا، نهض البطل الملك «أوليسيز» فتى ايثاكا، وندب نفسه للبحث عن أخيل، وأقسم لا يعودن إلا به.

ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربى، أوجس خيفة من أن يفر أوليسيز، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل، إن هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها، إلا أن أجاممنون نفسه، وهو القائد الأعلى للجيش والأساطيل، قبل أن يذهب أوليسيز كى يقص أثر أخيل، بعد أن أخذ عليه «يمينا على حد الحسام المهندا...»

استطاع أوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوس فى أعماق المحيط واستطاع أيضا أن يختلط بالخدع وحاشية القصر، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء المقربين من رجال الأسرة المالكة، فيعلم منهم أين يختبئ أخيل، وكيف يمارس حياة العذارى فى بلاد ليكوميدس، ملك سيروس، كأنه احداهن، وعلم أيضا أن أخيل نشأ نشأة عسكرية على يدى شيرون العظيم، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به ألا يستنيم لهذه

الحياة الناعمة التي لا تليق إلا بأبكار الخدور، وربات الحجال، لا بالأبطال وصناديد الرجال، فانطلق إلى سيروس من فوره.

انطلق أوليسيز إلى سيروس النائبة، التي تكاد تكون منقطعة عن العالم، وقد حمل على ظهره العريض، وكامله القوى حقيبة كبيرة جمع فيها من كتان مصر وأصباغها، وعطورها، وحبر الشام، وحريره وسموره^(١)، وتصاوير فارس، وقاقمها^(٢) وسنجاها^(٣) ومشرفيات الهند وتحف السند، وطرف الصقلب.. ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعا.

فلما كان في حاضرة المملكة، يمم شطر قصر الملك.. وكان الوقت ضحى، ثم يصيح باللهجة السيروسية، معددا أسماء السلع التي : استحضرتها حديثا من مصر الجميلة المتقنة، والشام الصناع العبقري، وفارس الغنية الكسروية، والهند العظيمة، والسند الـ.. ونحن لا نبيع إلا للملوك وأبناء الملوك، لأن الشعب فقير لا يقدر بضائعنا الغالية.. ونحن معروفون في مصر، لا يشتري فرعون إلا منا وفي الشام، وفي فارس، وفي الهند، حيث الأقبال العظام والـ..

وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجر المفاخر بما معه واجتمعن حوله يتفرجن ويتلهين، هذه تختار منديلا من حرير الهند أو منطقة من خز الشام، وتلك تشتري من أصباغ مصر وعطورها وخرزها، وثالثة تفتتن بتصاوير فارس فتشتري كل ما مع الرجل منها..

ولكن فتاة ملثمة.. وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة، ولا تكاد تبين إلا عن عيين زرقاوين متألقتين، تقدمت في خطوات متزنة، ومشية منتظمة، وأخذت الحقيبة من الرجل فقلبتها وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق، حتى تهلت وبدأ البشر في عينيها، وتناولت حساما مرهفا وشرعت تلعب في الهواء ههنا وههنا، كأنما

(١) ، (٢) ، (٣) ألوان من الفرو الثمين.

تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم فى لوحة الخيال البعيد،
المنطبع على أسوار طروادة!!

وشده أوليسيز مما رأى!

إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة :
وإن فتاة تغازل السيف هكذا، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن
يقفوا فى وجهها، إذا جمعهم وإياها حلبة الوغى!
إنها تأخذ على الهواء مسلكة، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات
القاسيات!

وانقشع الشك عن نفس أوليسيز، وأيقن أنه أمام البطل الممنشود،
فصاح بصوته الجهورى، وكأن الرعد ينبى من بين شذقيه:
«أخيل!...».

وكان كل ما فى الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسيز :
«أخيل... أخيل... أخيل».

ووقف أخيل لحظة جامدا، شارد اللب، زائغ العينين، كأنه يستيقظ
من حلم كرهه مفزع، ثم ما هو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية
التي كانت تحبس جسمه العظيم فى سجن امرأة، وصاح بأوليسيز وقد
بدا فى برد الأسد.

- «أنا هو.. أنا أخيل.. فمرحى يا رجل!».

- أنت هو..؟!«.

- «أجل.. أخيل بن بليوس.. أبى إله عظيم وأمى بنت إله عظيم، قلبيك
وسعديك!».

- وأنت مختبىء هنا فى خدور النساء خشية الحرب التي احتشد لها
قومك دفاعا عن الوطن؟«.

- «أية حرب يا رجل؟».
- «بين هيلاس وبين طروادة!».
- «ومن أثارها؟».
- «لقد سرق باريث بن بريام، هيلين ملكة أسبارطة».
- «سرقها؟ ولم لم تقتله الفاجرة؟».
- «فرت معه، ولم تبال بأن تلقى شرف هيلاس في الوحل».
- «ولم لم تذهب أنت إلى الحومة، ويبدو لي أنك محارب كبير؟».
- «بل أقبلت من الصفوف لأبحث عنك!».
- «ومن أنت حتى ينتدبك الجيش للبحث عن أخيل؟».
- «ومن أنا؟ وماذا يسرك أن أكون؟».
- «من أنت يا رجل؟».
- «أيسرك أن ملكا هو الذي يبحث عنك يا أخيل بن بليوس؟».
- «ماذا تعنى بـ أأنت ملك اذن؟ ملك ماذا؟».
- «ملك ايثاكا يا أخيل!!».
- «أنت ملك ايثاكا؟ أنت أوليسيز؟ هاها.. وما تلك الحقيبة اذن؟».
- «هى وسيلتى إليك. لقد مزقت بها خمارك، وهتكت بما فيها أستارك».
- «أنت تهيننى!».
- «لا عليك، مادام محدثك أوليسيز!».
- «أفى الحق أنك هو..؟».
- «أقسم لك بالكفاس^(١) الذى آواك..».

(١) الكفاس بكسر الكاف بيت الظبي .

- «وفيم كنت تحرث شاطئ البحر اذن؟ لقد ذكروا أنك زرعتهم
ملحاً، فهل حصدت سمكاً يا أوليسيز؟».

- «أخيل! الأسطول ينتظرنا، ألف ألف يتحرقون شوقاً لرؤياك وأنت
أكرم من أن تفر من حرب.. فهلهم!».

- «هلم إلى أين؟».

- «إلى أوليس أيها العزيز.. إلى حياة البطولة والمجد والشرف!!».

- «البطولة والمجد والشرف!! ماذا تقول؟».

- لم يخلق تلاميذ شيرون للتقلب في قصور الراحة، والتلذذ بما في
العيش من طراوة ونعومة.. هلم يا أخيل نخض المعركة، ونلق طروادة
العاتية، ونلقنها درساً دامياً في الذود عن كرامة الوطن! لا تقتل وقتناً،
فقد حرصنا جميعاً على أن تكون معنا، وتحدثت إلينا آلهتنا أن طروادة
لا تفتح إلا عليك، ولا تعنو إلا لك، وقد اتفقت المقادير أن ترميها بك..
لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا: فر أخيل وتقاعس، فأين أبطال
هيلاس! هلم هلم، فقومك بنو الكريهة وقروم الحرب وحتوف الأعداء.
لو رأيتهم مستلثمين في سلاحهم، مقنعين في حديدتهم، ململمين في
سفنهم، لزهاك عسكرهم الجرار، وبهرك خميسهم العرموم! وتمنيت أن
تكون أحدهم بالدنيا وما فيها.

دع الغيد يفاخرن بالقلائد والعقود، وتعال إلينا نعد ما في أجسامنا
من ضربات السيوف، ووخزات الرماح، ومواقع السهام، فهذه أعز
مفاخر الرجال يا أخيل!

أخيل! رد على! قل سأحضر معك! كلنا ننتظرك يا أخيل!

لن تفتح طروادة إلا عليك! فأى فخر ينتظرك تحت أسوارها، وأى
مجد يكلل هامتك يا أعز أبطالها!

تكلم، ولا تصمت هكذا.. إن ملك ايثاكا يتوسل إليك، أنا أوليسيز كله!
سأكون خدتك في الحومة، وصديقك في المعركة!

وأجاممنون! إنه قائدنا إلى الفخار، وصاحبنا في مصارع الشرف!
وديوميدز بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال! سينسى شجاعته
حين ينظر إليك تلاعب الأسنة، وتقبل مشارف الرقاق البيض!
وأجاكس^(١) يا أخيل! لقد بهره ما سمعه عنك، ويتمنى أن يراك ويحارب
تحت بند من بنودك خفاق! أجاكس نفسه يود أن يكون جندياً من
جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعاً..!

ماذا؟ تبكى؟ لا لا يا أخيل..

لترقاً دموعك فهي أغلى من أن تنسكب هكذا!

أكرم بك هيلانيا رقيق القلب، باراً ببلادك، مناضلاً عن رايته في
ساحة المجد!

لتشرب من دموع أخيل يا ثرى الوطن!

لتروك هذه العبرات الغاليات، فهي ترياقك إذا حزبك أمر، أو أدلهمت
بك الخطوب!



وهكذا كان أوليسيز ماهراً في إثارة النخوة في قلب البطل!

وهل أحلى من كلمات البطولة، أوقع من حديث المجد، في نفس
شاب مثل أخيل؟ لقد تقدم مختاراً طائعاً فقبل جبين أوليسيز، ولثم
سيفه ثم ودع بنات الملك. وحيا القصر، وتزود من الحقائق نظرات.

وانطلق في أثر أوليسيز!

إلى..

أوليس!

(١) هوميروس .

القربان (١)

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى
طروادة فيدمرها تدميرا!

ولكن البحر هادئ. والرياح نائمة، ولا بد
لهذه السفن المثقلة بالعدة والعديد من قوة
هائلة تدفعها في هذا الخضم الزاخر.

الأيام تمضي دون أن تستيقظ الريح.

والملال يدب إلى قلوب الجند، من طول
ما تلبثوا في تلك الجهة من الشاطئ العابس
المتجه لا يريمون.

والميرة تكاد تنفذ.

والخيل تعلق حديداتها كأنها برمت بهذا
الركود.

- « كالخاس ».

- « مولاي ».

- « اذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا
تبغى لتطلق الرياح؟ ».

(١) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل - علاوة على هوميروس - على
درامة يوريبيدز الخالدة « إيجنيافي أوليس » وذلك لأن ما وصلنا من
هوميروس عنها مقتضب فكانت درامة يوريبيدز هذه كالشرح
المسهب لها.

- « لبيك يا مولاي ».
- وانطلق عراف الحملة إلى المعبد القريب فمكث غير قليل، وعاد بقلب موهون، وجسم مضعضع، ووجه مغبر، وجبين كاسف معقد.
- « ما وراءك يا كالخاس ؟ »
- « مولاي ! »
- « تكلم ! تكلم يا كالخاس »
- « الآلهة، الآلهة عطشى يا مولاي ! »
- « عطشى ؟ »
- « أجل . عطشى إلى الدماء ».
- « دماء من ؟ ».
- « دماء .. ابنتك ! »
- « ابنتي ؟ ابنتي من ؟ »
- « أفجنيا .. »
- « ويلاه ، ماذا تقول ؟ »
- « لابد من تقديمها قربانا! لابد من أن يطل دمها على مذبح ديانا يا مولاي ».
- « ولمه ؟ »
- « لكي تطلق الرياح من عقالها، ولكي تكون فدى للجيش كله، ولهيلاس جميعا ».
- « يا للهول! لا كانت هذه الحرب ».
- وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله وطفقوا يترضونه: «من أجل الآلهة، وفي سبيل الوطن»، والرجل يبكي وينشج، وتذهب نفسه شعاعا!

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه.

فلما انصرفوا دعا إليه كالخاس وأخذ معه فى حوار طويل ثم رجاه أن يذهب إلى المعبد فيضرع إلى الآلهة، عسى أن تقبل قربانا آخر، غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة، مهما غلت قيمة هذا القربان!

وعاد كالخاس، وأخبر أن الآلهة لا تبتغى بأفجنيا بديلا!

وانهزم أجاممنون الأب، وانتصر أجاممنون المؤمن التقى الورع، الذى يقدس الآلهة، ويعرف لها قدرها، فأمر بقرطاس وقلم، وكتب إلى زوجه كليتمنسترا!

«بشراك يا حبيبتي!»

أتعرفين أخيل؟

أخيل الذى أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب، بطل هيلاس الذى وعدتنا الآلهة بفتح طروادة على يديه، الشاب الوسيم القسيم القوى الأبى الشجاع، يتقدم أخيل لخطبة أفجنيا «ابنتنا المحبوبة» وبوده لو تزف إليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة، أنه لاشك سيرى فى مرآة أفجنيا وطنه، وحينئذ يكون حربا على الأعداء ونقمة عليهم من السماء.

أرسلها أيتها العزيزة، وبودى أن تسرعى بإرسالها من دون ما جلبة فالوقت ضيق ونحن على وشك الإبحار.

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب إلى أرجوس، حيث تتوى كليتمنسترا، فى قصرها المنيف «أتريدى» مع ابنتها أفجنيا، وأبنائها الآخرين.

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد لها، فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى، وتصلى للآلهة التى وفقته للانضمام إلى الجيوش الغازية.

خفق قلب أفجنيا.. وكأنما غرقت فى لجة من الأحلام التى تجيش
عادة فى قلوب العازبات، حين يمر بهن هذا الطور الناعم الجميل من
أطوار الحياة.

ولكن ما الذى أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ولم اختار هذه
الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة؟ لا ندرى!

لقد مرت أيام دون أن تحضر أفجنيا، ولم يكن الطريق طويلا أو
شاقا بين أوليس وأرجوس حتى تتأخر كل هذه المدة، فهل حدث
شئ؟

وكانما أثار طول الانتظار العاصفة من جديد فى قلب أجاممنون
الأب فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولمبى، ولو صار بعدها زنديقا
ملحدا مطرودا من جنة الآلهة، مغضوبا عليه من قلب الوطن.

وقد كان!

فإنه استدعى الرقيق العجوز، الذى كان يحمل دائما بريد القائد
العام إلى أرجوس، ودفع إليه برقعة أمر فيها ألا تحضر أفجنيا، وأمره
بأن يسرع بها إلى زوجه، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر.



والأسفاه!

لقد لقى منلوس، شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة،
والذى من أجله نشبت هذه الحرب، الرقيق العجوز حامل الرسالة
فاستوقفه وقراها.

ودارت الدنيا بالملك المحزون، وأحلولكت الحياة فى عينيه وقصد
من فوره إلى أخيه فانتهره، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب
والتعبير.. يدفع أجاممنون عن ابنته وقلدة كبده، ويفتديها بنفسه
وبالدنيا وما فيها، ويعيره منلوس بالمروق من الدين، وعصيان الآلهة،
وشق عصا الطاعة على السماء.

وأنهما كذلك، إذ برسول يعلنهما أن كليتمنسترا، زوجة أجاممنون وابنتها أفجنيا تستأذن في لقاء الملك، ولقاء القائد العام.

يا السخرية المقادير؟ لقد ذهل أجاممنون، وانطلق يبكي، حتى تفجر الحنان في قلب منلوس المتحجر، ورق لأخيه البائس الملتاع فقال له: «أخي: انقذها يا أخي، إنها ابنتي كما هي ابنتك فانقذها كما يحلو لك».

ويبهت أجاممنون لهول الموقف، ولا يدري ماذا في وسعه أن يصنع، ثم يراه واقفا وحده يبكي كما يبكي الأطفال، بعد إذ غادره أخوه.

ويلمح زوجه مقبلة، فيصلح من شأنه، ويتكف البشاشة والتبسم، وأنها لبشاشة باكية، وأنه لتبسم مر حزين.

— « أهلا أهلا أفجنيا، مرحبا مرحبا كليتمنسترا، سفر حميد ورحلة طيبة! »

« أين أخيل، وماذا أعددتם للاحتفال بالعروسين؟ »

— « ا.. ا.. أجل . ولكن لابد أن تعودى أنت إلى أرجوس! »

— « أعود إلى أرجوس، أعود وأترك ابنتي! »

« أجل .. تعودين وتتركين أفجنيا! »

— « والعروس وإعلان الخطبة على الأقل؟ ألا احضر شيئا من ذلك؟ هذا لا يكون، لن أعود حتى أشهد كل شيء. ».

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها، وحتى ترى هذا العسكر الجرار والأساطيل المنتشرة في البحر كالديبى^(١)، تحيي ابنتها وتحيي أخيل، وترقص طربا للعروسين.

ثم يحدث ما ليس في حسابان أحد

(١) الجراد .

يحضر أخيل ليقابل القائد العام، وليبدى له سخطه وسخط جنوده «الميرميدون» من طول هذا الانتظار الذى يبدو أن ليس له آخر، ويلح لديه فى وجوب الاقلاع إلى طروادة مهما كلفهم الأمر.

وما تكاد كليتمسترا تسمع كلام أخيل^(١)، وتسمعه يذكر فرقة الميرميدون المشهورة فى جميع الآفاق ببسالتها وكلفها الخارق بالحروب، حتى تعرفه، وتعرف أنه أخيل.. أخيل بعينه، خطيب ابنتها.. وزوج أفجنيا الحبيب.

فتتقدم إليه هاشة محببة، حتى إذا أنس إليها، بدهته بالسؤال عن العرس. - «عرس» معرس ماذا؟

- «عرس ماذا؟ ألسنت أخيل! قد تقدمت إلى أجاممنون أمير أرجوس، تطلب أن تكون أفجنيا زوجة لك ألم تطلب يد أفجنيا تكلم..»

ولكن أخيل يسمر فى مكانه باهتا لا يدرى ماذا يقول. لأنه لا يعرف مما قالت السيدة شيئا. وتحملق الملكة فى أخيل طويلا، ويتصبب العرق فى جبين أفجنيا، الفتاة البريئة، لما ترى من حيرة أمها، وارتباك هذا الجندى الباسق الجميل، الذى كانت تحلم به زوجا كريما لها..

ولكن هذا الموقف لم يرض أحدا.. حتى الرقيق العجوز، حامل بريد القائد العام، فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق فباح بكل شئ.. باح بكل ما سمع من تحاور منلوس الملك، وأجاممنون القائد الأعلى، بخصوص هذا الزواج المفترى: «مولاتى الملكة! خذى حذرك لفتاتك المسكينة، إنها ستذبح، إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظالمية من دمها الذكى البريء، أن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد أفجنيا، بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلا أو كثيرا.. ها هو ذا أمامك فاسأليه..»

وكأنا صواعق السماء جميعا نزلت على قلوب القوم.

(١) قد يلاحظ من له اطلاع على الأدب اليونانى المسرحى تصرفا فى السياق.

لقد تحطمت كليتمنسترا.

وذاب الثلج فى عروق أفجنيا.

وزلزل أجاممنون.

أما أخيل : فقد شده وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الدهول ثم ما هو إلا أن أفاق فاضطربت به الأرض، وأحنقه أن يتخذ مطية لهذا العبث العابث، والسخرية المهيئة.

وصاح الشاب كأنه أسد مهيج وانداح شرر الغضب من عينيه، حتى خيف أن يبطش بأجاممنون وجنوده. كيما يثار لاسمه، ويصون كرامته..

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتتقذ ابنتها من القتل، فانبطحت عند قدمي أخيل تقبلهما، وتغسلهما بدموعها، متوسلة إليه أن يدفع عن أفجنيا، ويحول بينها وبين الموت.

- «فإن لم يكون بحسبك أن أمرغ خدى تحت قدميك لتكون حامى ابنتى، فإنها هى أيضا تفعل مثلى يا أخيل، إنها تمرغ حر جبينها عند موطىء هذه القدم الطاهرة لتكون حاميتها وحارسها».

- «قفى يا سيدتى، وكلمى أباهما فى شأنها، فإن لم يحل بينها وبين الموت فإننى، سأقاتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك، ولو حاربت هيلاس جميعا».

وترجو الأم زوجها ، أن يحول بين ابنته وبينه هذه القتلة الشنيعة، ويتصدع قلب أجاممنون، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة، فيعد، ولكن.. لات حين موعد.

لقد نما إلى العسكر أن أخيل أنذر أنه سيقف دون الدم الذى أمرت به الآلهة أن يراق فغيظوا وأحنقوا، وذهبوا إليه يتحسسون جليلة الأمر، فصارحهم به فانقضوا عليه يرشقونه بالسنتهم الحداد، ويرجمونه بحجارة الشاطيء.. فولى مدبرا.

ورفعت الأم حين رأت إلى الميرميدون - جنود أخيل الأمناء -
يرجمون سيدهم فيمن برجمه من الجنود الآخرين، فعولت على أن
تحمل السلاح وتقف إلى جانبه، لتذود هؤلاء الوحوش.
ولكن أفجنيا الصغيرة، أفجنيا الفتاة، أفجنيا العظيمة، وقفت في وجه
أمها، وصرخت قائلة:

- «مكانك يا أماء، لن يموت أخيل من أجل فتاة».

من أنا حتى يفتديني هذا البطل العظيم؟ وما حياتي التافهة في
حياته المذخورة الغالية؟.. إن رجلا يحارب من أجل هيلاس، أجدر
بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن إلى حرب من سبيل؟ أيها
الجنود:

خلوا سبيل سيدكم، فلن تفتح طروادة إلا على يديه، كما أخبرت
بذلك آلهتكم، وما دام النصر معلقا بحياتي، فكم يبهجنى أن أفقد
الوطن، وأرض أربابى، إن هيلاس كلها تنظر إلى اليوم، فهل هناك فخر
أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بى، أنا لها، أنا أفديك يا وطنى، أماء
لا تحزننى، أنظرى إلى، ها أنذا ابتسم للموت... للقتل.. للذبح.. هلموا
يا سادة هلموا.. أين المذبح.. صلوا من أجلى.. تحيا هيلاس...».

وفى هذه اللحظة فقط، تكبر أفجنيا فى عينى أخيل. فيتمنى لو أجلت
فى حياتها لتكون زوجة كريمة له.. ويعرض استعداداه للمنافحة عنها
بسيفه، ولكنها تنهأ، وتوصيه أن يعيش لوطنه، ليذب عن بيضته.
ويعلى كلمته.

وتنسكب دموع أخيل.

فيا للفتاة.. ويا للأم. ويا لأخيل البطل.

وتضع أفجنيا رأسها على رخامة المذبح، ويرهف الكاهن مديته..
ولكن؟ لقد شده القوم.. ونظر بعضهم إلى بعض.

إنهم ينظرون فلا يرون أفجنيا.

بل يرون مكانها ظيبيا.. رشا غريرا.

اذن هي المعجزة.

لقد تقطر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة، فهبطت من ذرى
الأولمب لتنقذها.. فرفعتها إلى السماء.. ثم أرسلتها لتكون راهبة
معبدها العظيم في مملكة توريس.

وارتفعت أغاني الغوالي..

يسبحن للآلهة العطشى!

الفدائي الأول

رويت الآلهة اذن وشفت ما في نفسها من
ظماً إلى دماء الضحايا، وإن لم تغفر لديانا
الباردة، ديانا ربة القمر، انقاذها للفتاة التعسة
أفجنيا، وهي قاب قوسين من خناجر الكهنة
والربيين القساة.

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزي،
المتدفق في عروق عبادها المخلصين من أبناء هيلاس،
فلما ذهب كالخاس، عراف الحملة، يستوحى أربابه في
معبد دلفي هل لها مطلب آخر في ضحية أو قربان بعد
تقدمه أفجنيا، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم
مقصورة الإله الأكبر يقول : لا.. ولكم أن تقلعوا اليوم..
فلذا كنتم عند شيطان طروادة، فإن لنا دم الفارس الأول
الذي تطلأ قدماه رمال الشاطيء.. سيقتل، وسيكون لنا
عوضاً عن أفجنيا.

ودعنا إليه أبناءه ^(١) أيولوس رب الرياح

(١) (أيولوس) رب الرياح في الميثولوجيا اليونانية، وقد تزوج من
أورورا فأنجبت له أبناء الستة:
١ - يوريس رب الريح الشمالية.
٢ - كوروس رب الريح الشمالية الغربية.
٣ - أكوبلو رب الريح الغربية.
٤ - تيتوس رب الريح الجنوبية الغربية.
٥ - أيوروس رب الريح الشرقية.
٦ - ثم زفيروس رب النسيم الجنوبي
(عن هـ.أ. جروير ص ١٨٤)

الستة فأمرهم أن يكونوا جميعا فى خدمة الاسطول الهيلانى، حتى يصل إلى طروادة.. «وأنا أعرفك يا يوريس حين تعصف وتزف، وتصيح ويلا على الجوارى أى ويل، وأنت يا كوروس، إياك وهذه البوارج التى تصلى بها سفائن القوم، وأنت يا أكويلو، وأنت أيضا يا تيتوس أن ريحك مجفل، وهبتك هوجاء، ولفحاتك حرور، وأنفاسك سموم، فإن لم تترفق بالقوم وتجر بين أيديهم رخاء، فلاسجنك فى الكهف الأسود حتى حين، أما أنت يا ولدى أيوروس، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك، أو أن يسوء فآلهم فيك، بل كن لهم خادما أميناً، تدفع ركبهم فى رفق وتملاً شراعهم فى أناة.. ويسرنى أن تسمعوا لنصيحة زفيروس، فهو اليحكم عريكة وأكثركم صفاء.. ألقوا إليه بزمائمكم، ولا تختلفوا فى أمر يلقيه إليكم، اصلح لكم زيوس أحوالكم...».

وهبت الريح فخفقت أفئدة العسكر، وابتهجت أنفس القادة واجتمع الميرميدون حول أخيل يقرضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم، ثم انتشرت الشراع ورفعت المراسى، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللجى، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء فى خضرتين، ومن درع الجند وزبد الموج فى لبدتين، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطئ الشاحب فى بحر من الأمان.

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره، أسرع من كل فج يحيين أبطال هيلاس، يخفين الوشائع السوداء التى ادخرنها لأيام الفصل، إن أيام الفصل كانت ميقاتا أى ميقات.

توارت الشمس بالحجاب، بزغ القمر يفضض حواشى الماء، وحملت النجوم تنظر إلى هذا الأسطول اللجب، يمخر عبابا من خلفه عباب، ويطوى لجة من ورائها لجة، والملاحون دائبون ماينون، مرسلين فى اللانهاية ألحانهم، مرددة الرياح أغانيهم وأنغامهم، والقادة متككبون حول القائد الأعلى، حول أجاممنون، يدرسون تلك الخطة، وينقدون هذه الفكرة، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز.

وتنفس صبح اليوم الثالث.

وبدت طروادة العاتية فى الأفق الشرقى، متشحة بالشفق
النحاسى الذى صبغ سماءها بالبنفسج الرائع، تتفجر منه أنهار من
الدم.

طروادة!

ذات الأبراج المشيدة والقباب المنيفة.

اليوم (١)

بنية نبيتيون إله البحار (٢) نفاه زيوس من جنة الأولمب، ونفى معه
أبوللو، فساعده فى بنائها بموسيقاه.

يا ما أروعه منظراً أن نرى أبوللو العظيم يعزف على قيثارته المرنة.
فتتب الحجارة وتتراقص، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا اليوم.

طروادة يا ذات الحول!

أين تنام هيلين الساعة ساهمة حاملة، وإيان تتقلب ترب فينوس
التي فرت مع باريس.

ويحك يا منلوس.

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة، يتمنى لو تندك على
الخائنين الآثمين.

«.. أهو الآن هناك، هذا اللص الغادر، وقاطع الطريق السفاح! هو؟..
وهي؟ ويلاه».

(١) Iluim هى طروادة أيضاً. ومن هذا الاسم اشتق هوميروس كلمة «إلياذة» لملحمته
الخالدة Iliad وعلى ذكر الإلياذة ننبه القارئ إلى أننا - حتى هذا الفصل - لم نصل إلى بدايتها عند
هوميروس. إلى ذلك فى حينه.

(٢) إشارة إلى أن نبيتيون هو الذى بناها.

منلوس. لابد مما ليس منه بد..

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يسعون ويستعدون جيرانهم فنصروهم ولبوا نداءهم، وهرعوا إليهم من كل فج عميق. وها هي ذى مشارف الجبال وقنتها وسفوحها ومنتوء الشاطئ وصخوره ومغاوره، وها هي ذى ليديا المتيقظة وأيونيا المتحفزة وأيونيا الرابضة^(١). ها هي ذى تلك البلاد جميعا تضج بالجنود، وتعج بالسلح، وتقعقع بأكة الحرب، وتدق طبول الوغى وتذكى نيران الحراسة فى قمم الجبال، فلا تغفل عين ولا تهمد همة ولا يتسرب إلى النفوس كلال.

واقترب الأسطول من الشاطئ.

ولكن أحدا لم يجسر أن يجازف بنفسه، لأن القتل الأول، هو أول من يهبط إلى الأرض، كما أخبرت النبوءة فى معبد دلفى.

ومرت أيام : والهيلانيون فى سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها، ويتحرقون شوقا إلى لقاء جنودها، ومنلوس يحرق الأرم هو الآخر، ولكن أحدا لا يرضى أن يكون الفدائى الأول.. «لأنى إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوما على، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل. وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قربانا للآلهة، ولكن لأزاحم وأقاحم وأنافح وأصول فإن قتلت بعدها فبعشرات وعشرات، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدى...».

(١) هذه أقاليم قديمة فى غرب الأناضول مما يجاور طروادة برا وبحرا.

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانيا مقاحما، هيلانيا واحدا، من
خيرة القادة ومذاويدهم، عز عليه ألا يكون في
هذا الجيش العرمرم على ما جمع من صناديد
اليونان ومغاويرهم، فدائى واحد يتلقى الطعنة
الأولى النجلاء. بثغر باسم وقلب لا يجزع،
ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع في موقف الموت،
ولا تفرق إذا حم القضاء.

كبر على بروتسيلوس أن يرمى قومه بجبن
ليست لهم يد فيه، وكبر عليه أن يقف ألف ألف
لو شاءوا لدكوا الجبال وزلزلوا السموات، من
دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون، كأنما
حربهم هزل، ونفيرهم مكاء وعزمهم تلفيق. أو
كأنما ملأوا الدنيا وعيدا لتمتلىء الدنيا عليهم
سخرية وضحكا.

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد
هذا الموقف، فارتخص نفسه وهانت عليه
الحياة، وتفهمت في عينيه لذائذ هذا العيش
الذليل، ثم استخار أربابه، واستعان بسيد
الأولمب، وما هو إلا أن لمح الشمس يذر قرنها
في خدر الشرق فوق جبين طروادة، حتى قذف
بنفسه على الشاطئ، وأرسل في الخافقين

صيحة الحرب كأنها رعد يمد به جانب الجبل، وتهتز من قصفه أسوار المدينة، ثم جال جوله هنا وجولة هناك، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان، وإذا هو ملقى على أديم الثرى مضرجا بدمه، معفر الجبين بأول نقع فى هذه الحرب.

وذاع خبر مقتله حتى انتهى إلى تساليا، حيث زوجته المفجعة، فحزنت عليه حزناً أمض قلبها، وشف جسمها، وأقض مضجعها، وصير الحياة فى عينيها حلكا شديدا وظلاما قاتما.. «بروتسيلوس: أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شيء، فى ميدان المجد والشرف، ونسيت فيه كل شيء، أهكذا يا حبيبي ذكرت التضحية والاقدام، حيث تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والاقدام، فغامرت بنفسك فى هذا المعترك المضطرب، ونسيت أن وراءك قلبا ينعقد رجاؤه بك، ونفسا ترف من خلف البحار فوقك، وروحا لا سكن لها إلا صدرك وأذنين ما التذتا إلا بالموسيقى المنسكة من فمك، بروتسيلوس : ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبي؟ من لزوجتك التاعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن. ومن للمحزونة الكاسفة لأوداميا؟ ما أشقى الحياة على بعدك يا رجلى ومن كنت كل شيء لى.

لا سخط عليكم يا أربابى.

بل أنا أصلى لكم، أصلى لكم بدموعى وقلبي، أصلى لكم بأحشائى التى تتمزق، ورأسى الذى يحترق، أصلى لكم بلسانى الذى يجف من شرق فى حلقى، وكان حديث بروتسيلوس يرطبه وينديه، أصلى لكم يا أرباب الأولمب عسى أن تلين قلوبكم لى، فأرى حبيبي وأموت.

رجية يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمب، أما أن أقضى فأستريح من هذا الكمد الممض. والبث المؤلم.. وأما أن تأذنوا فيعود بروتسيلوس فأراه وأموت.

أتمنى عليكم أن يعود فأكلمه.. أملاً أذننى وقلبي من موسيقاه! أناديه باسمه وينادينى باسمى! يعانقنى وأعانقه، يرى عبراتى وأنظر إلى

عبراته! يبتسم لى فى رضاه وفرحه، وأبتسم له فى انكسارى ولوعتى!
أئذنوا يا أرباب الأولمب، فأنا ما أفتأ أصلى لكم، وأتوسل إليكم بدمه
الذكى، وروحه الأبى، وقلبه الكبير!
ارحموا ذلى، ورقوا لهوانى، وارثوا لحالى!..»



وصيرت بنواحها اشراق الصباح ظلمة من الحزن لا أول لها
ولا آخر، وأرسلت فى الليل البهيم أناتها المؤلمة، وزفراتها الحارة،
ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة، حتى ارتجفت قواعد
الأولمب، واهتزت عروشها الذهبية، وانعقدت بينه وبين لاوداميا قنطرة
من الحزن، عبرت عليها بركات الآلهة إلى فؤادها المكبوم! فمسحت
عبراتها، وهدأت من روعها، وبشرتها بعودة بروتسيلوس!

وفى هدأة ليلة مقمرة، سكن هواؤها، وصدح بلبلها، وأنشد البدر
لحنه الصافى على آراذه الفضية ليغمرها بهاء وروعة، خرجت لأوداميا
المحزونة من قصرها المنيف، لتلقى روح بروتسيلوس يهدده هرمز
الكريم بين يديه، حتى يكون تلقاء زوجه. فترتمى بين ذراعيه!

ويغرقان فى طوفان من القبل!

ويغرقان فى لجة من العبرات!

ويقص عليها بروتسيلوس أنباء مقتله.. فتبكي.. وتبكي.. وتعاتبه
لاوداميا.. وتعذله.. ولكن الساعات الثلاث التى سمحت بها الآلهة
للقائهما تمر كاللمح.. فينبههما هرمز إلى انقضائها.. وما تكاد تسمع
نذير هرمز، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه إلى هيدز، فيظل فيها إلى
الأبد، حتى تصعق مكانها، وتخر مغشياً عليها وتموت!

فوارحمته الزوجين السعيدين اللذين لن يفترقا بعد اليوم.

وما أجمل هذين الطيفين الحبيبين يعودان معا إلى دار الخلود!

من السهام

قضى بروتسيلوس نحيبه، وعادت روحه
الكريمة إلى هيدز مصطحبة روح زوجته البارة،
وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق
قبر الراحلين فنمت وترعرعت، ونعم بفيئها
الوارف ماء الهلسبنت^(١) ورتعت في ظلها
أترابه.

ولكن...!

لقد كانت روح بروتسيلوس الجذوة التي
أججت نيران الحرب فجعلتها خراباً! فإنه
ما كاد يرمى بالسهم فيصمى، فيسيل دمه
أنهاراً، حتى تدفقت جيوش الهيلانيين على
الشاطيء الأسىوى غير مباليين بالموت الأحمر
الذى كانت تمطرهم به سهام الطرواديين،
والمنية السوداء التى كانت تقطر من سيوفهم،
فتحصد صفوف الغازين حصداً. لا. لم يبال
الهيلانيون بهذا الهول الأكبر، بل انقضوا على
الشاطيء شكاكاً فى سلاحهم، مقنعين فى
دروعهم، مرهقين سيوفهم، تفيض عليهم عدة
الحرب كأنهم جنة ترقص فى زوبعة، أو ظلال

(١) هو بوزاز الدردنيل، وبالقرب من ماخذه الجنوبى، على شاطيء
آسيا توجد طروادة.

من الذعر تجول فى معمعة.

وتبعهم قادتهم العظماء فانطلقوا يبوؤنهم مواقف للقتال، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال، ما أضرموا به جوانبهم شوقا إلى خوض الكريهة، وحنينا إلى اقتحام الوغى، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض.

ودقت الطبول فكانت ايدانا بهجوم الهيلانيين.

فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر، والموج يساور الموج، والموت يصاول الموت، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة، وصيحات الهيلانيين تردها صيحات الطرواديين، وليل الآخرة يغطش نهار الدنيا، وظلام القبور يكشف لهذا الدور، والفرع يمشى فى صفوف هؤلاء وهؤلاء، واليتم يجرح هذا الكبد، ويقرح ذلك القلب، والحزن يفيض على هذا السهل، ويجوب ذاك الوادى، ويرف على قلل تلك الجبال، وأنين الجرحى يطن فى فضاء الساحة الحمراء، فيملأ الأذان بالهلع، والنفوس بالجزع، والدماء تتفجر هنا، وتنحدر هناك، والرؤوس منتشرة فوق الأديم المضرج، زائغة أبصارها، فاعرة أفواهها، معفرة بالتراب أنوفها التى عزت على العالمين.

ثم انظر إلى أخيل يرعد بين الصفوف ويقصف، ومن ورائه الميرميدون يوزعون المنايا ويهددون الحتوف ويقربون الأجال!

وأوليسيز المغوار، وتلك العجاجة المنعقدة فوق رأسه من غبار الحرب، وهذه الصعدة السمرء يمينه تنفث الموت فى صدور الأعداء!

وأجاكس وجنوده! الكرار الفرار، المذاويد الأحرار!

ونبليوس، قائد العساكر البووطية، القروم البواسل، والليوث الكواسر!

وديوميد! نبعة أرومته، وسيد عشيرته، ووجه قومه، وفارس كتيبته!

وأجينور! فتى أركاديا، وملاك أمرها، وشمس ضحاها!
وميجيز! النجد الباسل، والبطل الحلاحل!
وأيدومينيز! ملك كريت وقائد جنودها، أباة الذل وكماة الوغى،
ومرادی الحروب!
وتليبوليموس بن هرقل بطل المجازفات، المقدام أخو الغمرات^(١)!
ثم انظر إلى الصيد الصناديد من أبناء طروادة وجيرانهم الكماة، الأباة
الحماة!
هاك هكتور العظيم بن بريام الملك، عضد طروادة وسندها وليث
عرينها، الثبت الصابر المصابر، رابط الجأش شديد البطش، قوى
الشكيمة الفارس المقدام!
هاك هكتور الأسد، يرغى فى أسود الشرى ويزبد، ويوقل فى بطاح
طروادة وينجد!
وهناك اينياس الهائل، يقود «الدردان»^(٢) الأبطال، إلى كرائم الفعال
فى ساحة القتال!
وهاك بنداروس! تلميذ أبولو وربيبه، يقود فرسانه الفحول،
ورجاله البهاليل!
وها هما ولدا ميروبس الكبير ملك أبيسوس، يصلولان فى الحومة
ويجولان!
وهاك أسايوس بن ملك أبيدوس، يتقدم رجيل فرسانه، ويداعب
أعداءه بمرانه!
وها هم أشبال تراقية، يقودهم يوفيموس المقدام، ويقتحم بهم أيما
اقتحام!

(١) ذكر هوميروس رؤساء العشائر اليونانية التي اشتركت فى هذه الحرب فى الكتاب الثانى من الإلياذة ونحن نكتفى بذكر من أوردنا.
(٢) نسبة إلى دارداتوس أحد ملوك طروادة.

وها هم نسور أمييدون البواشق، أقبلوا من هناك.. من جنات
سيحون وجيحون ليخوضوا الجحيم، فى ذلك اليوم العظيم، وليذودوا
عن طروادة، حليفهم، ويدفعوا..!

وها هم أمراء ميديا، أقبلوا فى عدد وعديد، وكل جبار مريد! انظر
إذن إلى الجيشين فى مد وجزر، تبتسم لأحدهما الآمال، وتعبس للآخر
المنايا، ثم تدور الدائرة، فينتصر المهزوم، ويتأخر المتقدم، وهكذا
دواليك.

وتغيب الشمس وتشرق..

ويبرز القمر.. ويغرب..

وتكر الأيام، وتمر السنون!

وكما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا إليهم وهم ألف
فقالوا منهم، حتى إذا كروا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها،
واعتصموا بأبراجها، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى.
أعوام تسعة^(١)!

ملية بالتعب، مشحونة بالنصب، مفعمة بالخطوب والأهوال.

وكان الهيلانيون يرسلون البعوث والسرايا، فتجوب الريف. وتؤوب
بالغنائم والفيء، والأسلاب والسبى، فيقتسمها القادة، ويفيضون منها
على الجند.

وهاجموا مرة احدى القرى، فكان من جملة السبى فتاتان ذواتا رقة
وفتون، أما إحداهما فكانت من نصيب أجاممنون، واسمها خريسيز،
وهى ابنة كاهن القرية الورع، حبيب أبوللو وخليه وصفيه القديس
خريسيز، وكانت فتاة لعوبا حلوة الدل رشيقة الروح، وكان أبوها يحبها
حبا جما لا تعدل بعضه كل مباحج الحياة!

(١) من هنا تبدأ الرلياذة فى الملحة المنسوبة لهوميروس .

أما الأخرى فقد خلصت لأخيل وأخلصت له الود، وأصفاها هو المحبة، فكان أحدهما للآخر فى هذه المحنة القاسية الصدر الحنون، والقلب النجى، والملاذ الأمين. اسمها بريسيز، وأبوها شريف من أشرف هذه الناحية التى نكبت بتلك الحرب الضروس، فصليت لظاها، وطحنتها رحاها.

وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته، فازدحمت على قلبه الهموم، وأحس فى أعماقه بثقل البلية، وشعر كأنه جرد من كل شيء حتى من نفسه.

وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الهيلانى فيفتدى خريسيز، ولو نزل لأجاممنون عن كل ما يملك. وحذره صحبه من المخاطرة بنفسه فى هذا الطريق الشائك، ولكنه لم يعرهم التفاتة واحدة، بل دهن نفسه بالطيب الكهنوتى المقدس، ولبس مسوحة، وعقد زناره، وتناول مسبحة أبولو العظيم، ثم توكأ على عصاه العتيدة، وذهب يتهالك على نفسه، ويتعثر فى خطاه، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم.

وسأل عن خيمة القائد العام ف قيل له : إنها هى الفسطاط الأكبر الذى تبدو قبته هناك.. هناك عند شاطئ الهلسبنت، بين الجيش وبين الأسطول.

وانطلق الكاهن الجليل والدمع ينحدر من قلبه قطرات من الدم.. عن طريق عينيه، فيعلق بلحيته البيضاء، ويصبغها بأرجوانه، كأنه آية السماء الباكية، نذيرا لهذه القلوب القاسية، والغزاة الأقوياء!

وبلغ الفسطاط بعد لآى..

واستأذن على القائد العام فلم يؤذن له.. فاستأذن ثانية فهدد بالضرب وبالعقوبة.. ولكنه أب مفئود، وحزين منكود، فتنظر قليلا واستأذن فى أدب ولين واستكانة، فاذن له..

ووقف أمام القائد الأكبر واهى الجسم موهون القلب، محزونا

متصدعا، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه، والأسى يعقد لسانه،
والنار المندلعة فى رأسه تنسيه كل شىء.

وثار به أجاممنون!

لأنه على ما يبدو فوت عليه لذة طارئة، وسكرة مواتية، بمجيئه فى
تلك اللحظة الهائلة القريرة، والحاحه الشديد بضرورة لقاء القائد.

واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد، وسمعوا إلى
الكاهن الكبير يقول :

«مولاي»!

سعت إليك عائذا بك داعيا أبوللو العظيم لك، أن يفىء عليكم من
النصر والفتح المبين، وأن يهبكم من الرعاية والمنن ما تشتهي أنفسكم
وتقر به أعينكم، وما تترفعون به عن ظلم الضعفاء، والجور على
الملهوفين، فقد يغنى القليل الذى ترضى عنه الآلهة، عن الكثير الذى
يثير سخطها، ويستنزل غضبها..

ابنتى يا مولاي!

خريسيز العزيزة! ردها على يبارك لك أبوللو، وينزل سبيلك ببركة
دعوات قديسه الحزين الواقف أمامك، المبتهل إليك، المستعد لأن
يقتديها بكل ما يملك، وبكل ما يقدر عليه مما يرضى الملك!

لكن الملك أشاح بوجهه، وكبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه
بهذه الطلبة العزيزة أمامه! خريسيز! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد
احتلت من قلبه مكانة زوجه كليتمنسترا؟ واستحوذت على لبه حتى
نسى الحرب، وعزف عن الطعن والضرب، واستقر معها فى فسطاطه
آخذين فى لهو وحب وغناء وشرب!

أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة، ولو استحالت عينا
الكاهن بثرين تنزفان الدمع، وتفيضان بالدم؟

كلا! لن ينزل أجاممنون عن خريسيز!

«اصغ إلىّ يا رجل! لست أبالي أن تكون قديس أبوللو، وحامل
صولجائه، وحامي مسبحته، وعاقد زناره!

ستعود خريسيز معي. إلى أرجوس.. وسيذوي جمالها هناك، وتذبل
محاسنها في ثرى الوطن، وسأكل إليها منزلي تخدم فيه، وتصير أم
بنين، وسيكون بها قصرى جنة خلد ونعيما لا يقنى.. اذهب، فاسفح
دموعك في صومعة أبوللو، وصعد زفرائك في هيكله، وبين يدي
تمثاله.. اذهب وانج بنفسك من عذاب أليم..

خريسيز تعود معك؟!

إنك تثير النقمة في نفسى، فانج بنفسك.. انج...» وتصعد صدر
الرجل، وكاد قلبه يقف، فتقف أنفاسه!

وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه، وكلمات القائد تتردد في
مسمعيه، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أبوللو، وجلس يبكي
ويصلى!

أبوللو!

يا إلهى! أسمعت «لقد استهزا بك أجاممنون، وفجعتنى فى ابنتى
وفلذة كبدى، وقطعة قلبى، وحياة روحى!».

أبوللو!

هل سمعت يارب النور؟! رأيت إلى ذلك العاتى المتجبر كيف ثار
بقديسك الضعيف المسن الذى أحنت ظهره السنون فى عبادتك،
والصلاة لك، والتسبيح من أجلك، والتهاف باسمك..؟!

ألا فلتنتقم لعبدك يا أبوللو العظيم، وليحل على الطفاة غضبك
ولتسحقهم بعذاب واصب ليس له من قدرتك من دافع..

أبوللو..!

استجب يا رب الهيكل الخالد، وحامى المعبد الأمين!...»
وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب، والشموع الموقدة تذرى دموعها معه!.

فثار فى عليائه أبولو..!

انتفض الإله العظيم انتفاضة رجف من هولها الأولمب، ورف فى السماء كأنه سحابة مظلمة فى ليل بهيم، وفوق كاهله الكبير قوسه الفضية المرنان، وعلى ظهره كنانته الواسعة الشاسعة، يسمع لسهامها صليل أى صليل.. وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول المطمئن، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر، ووتر قوسه فانهمرت منها سهام كالطر، صبها على السفن حاملات الخيل والبغال أولاً، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وأبالا منها بعد ذلك.. فلا تسمع إلا أنينا وبكاء، ولا ترى إلا صرعى يضجون ويعولون، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهناك فيقعون إلى أذقانهم سجداً وبكياً..

أمطر يا طاعون..

ولا حنانيك يا أبولو..

واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله..

وفى اليوم العاشر أوحى إلى أخيل أن يدعو مجلس الجيش ليرى رآيه فى هذه النكبة التى دهتهم بها ميازيب السماء. فلما التأم شمل القادة، اجتمع الرأى على أن يذهب كالكاس فيستوحى أربابه لتكشف هذه الغمة، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرايين؟

وعاد كالكاس، كعادته، كلما حمل أخبار الشؤم من لدن أربابه، كاسف الوجه كالح الجبين، يحبس فى صدره شجون الأرض، وهموم السماء!.

«خريسيز يا سادة!»

«خريسيز تعود إلى أبيها القديس، وإلا فتلك مصارعكم جميعا فوق هذا الشاطئء المظلم، المضرج بدمائكم ودماء أعدائكم...!».

«هكذا تتفق كلمة الآلهة من أجل أبوللو.. فويل لنا جميعا إن لم نهديء ثورة صاحب القوس، ورب النور، وسيد الشمس..!»
«اسجدوا لأبوللو، واخشعوا..»

ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحIRON، ينظر بعضهم إلى بعض، ولا تنفرج شفة بكلمة، ولا يتحرك لسان بقول!

ولكن أخيل شعر فى صميمه أن القدر يسخره هذه المرة أيضا لتفريج الأزمة، وكشف البلاء، فنهض غير هياب، وأرسل قولة الحق فى غير وجل، وصرح بضرورة ارسال خريسيز إلى والدها القديس معززة مكرمة، ثم تقديم القرابين من لحم وشحم الأوعال إلى معبد أبوللو، واطعام الحاضر من شوائها والباد.

وزلزلت الأرض زلزالها، وهوت السماء فوق رأس أجاممنون.

ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرائها فى صدر القائد العام، الذى طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز!؟ إذا كان لابد من نزولى عن خريسيز، ليسلم الجند من هذا الوباء! وليسكن غضب أبوللو، وترضى السماء!..».

وتأججت نيران العداوة بينهما، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء وذاك يحض على انقاذ الجنود بتضحية الذات وانكارها فى سبيل ما هو أسمى وأرفع، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالى، فتشبت وأصر ألا ما نزل له أخيل عن بريسيز، لينزل هو عن خريسيز!

وهنا تتنزل الآلهة لتحكم بين الخصمين!

تبدو مينرفا، ربه الحكمة والموعظة الحسنة، رسولا من لدن حيرا سيدة ربات الأولمب، للبطل أخيل، بحيث لا يراها غيره، فتعظه أن يضحى بفتاته ما دام هذا اللفظ يابى ألا أن يكون ذلك..

ويصدع أخيل بأمر السماء..

ويذهب أوليسيز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه في معبده ييكى..
ويصلى، فيبشره بها، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش،
وتنهمر من عينيه دموع الفرح.

وتقدم القرابين باسم الجيش الهيلانى إلى معبد أبوللو.

فينكشف البلاء.. وترضى السماء.. ويدفن الهيلانيون موتاهم.

أما أخيل.. فينقطع عن المعركة، وينعزل في معسكره، لا يشترك في
الحرب، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون!

وتحس أمه بما يلم به من الحزن، وتعهده خيرا على يد الإله الأكبر
زيوس، سيد أرباب الأولمب!

فتنة

انتظرت ذيتيس - أم أخيل، وحبيلة زيوس
من قبل - حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبي
دعى إليه حينما شبت السخيمة بين أجاممنون
وبين ابنها، فأسرعت إليه لتكلمه في الإهانة
التي لحقت بأخيل العظيم، وأزرت بكبرياء بطل
هيلاس.

عجلت ذيتيس إلى زيوس..

وكانت ذكريات الإله الأكبر لا تزال تتدفق
في قلبه، وكان طيف لقائهما على شاطئ البحر
يملأ عينيه وخیاله، ويطن بالأمانى المفقودة في
أذنيه، وكان هذا الجمال الفتى لا يزال له رجع
في كل جوارحه.. وجوانحه..

وقفت أمامه زيوس!..

وكان حلما لذيذا طوف بعينه، فرأى قصة
حبه تمثل بكل ماضيها الحافل أمامه، ورأى إلى
هذه الأويقات الحلوة التي التذ فيها فتنة ذيتيس
تثب فجأة من الأيام الخوالي فتغمره بسحرها
وأسرها، ورأى ذراعيه ترتجفان أمامها في ذل
وضراعة، وطرفه الساهم الباكي يجول في
طرفها الناعس الكحيل، ورأى إلى هذا المرمز

الطروب المنصب فى تمثالها يكاد يكلمه.. فيروى له من أخبار الماضى،
وسكرات الوجد ما يفيض له دمه، ويخفق قلبه، وترتعد من ذكره
فرائصه..

«ذيتيس!؟..»

- «..؟.. تبكين..»

- «مالك.. تبكين!..»

- «!..»

- «لا.. لا.. إلى يا حبيبتى!»

وكانت كلما ألحت فى الصمت والبكاء، ألح هو فى التلطف والرجاء،
وكانت ذيتيس تدرك ما أثارته فى قلبه من وجده القديم، فدلّت وتاهت،
حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب، ولو كلفته هدم الأولمب، وثل عروش
السماء!

- «أ.. أخيل!..»

- «أخيل؟.. ما له؟..»

- «ما كفانى أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة، حتى يهينه
أجاممنون!»

- يهينه أجاممنون؟ يهينه كيف؟..

- «أغضب قديس أبولو وكاهنه الأكبر، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته
خريسيز فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه، فسخر الطاعون على
الهيلانيين، حتى كاد يبيدهم، فلما طلب إليه أن يرد ابنه القديس على
أبيها الشيخ، أبى، وأخذته العزة بالإثم، فلما ألح عليه أخيل، ولدى
البائس، انقادا للجيش، وابقاء على أبناء هيلاس، رضى أن ينزل عن
الفتاة، إذا نزل له أخيل عن بريسيذ..

«وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم، فنزل عن الفتاة للقائد
الغاشم..»

- «...ثم...»

- «ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه، وقد اعتزل الحرب، وخلا وحده فى معسكره، يجتر أحزانه وتجتره الآلام...»

- «لا عليك يا ذيتيس! لا عليك يا حبيبتى! قرى عينا.. قرى عينا.. فيما أخذه الناس بغير ما ينبغى له، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين!..»

وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها المتلألئ قبة.. ارتجف لها قلبه وانهمر الدمع من عينيه صبيبا..!

زلزلت ذيتيس قلب الإله الأكبر بدلالها وقوة فتونها، وأرق طيفها الرائع جفونه، فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها.. فهب من مضجعه السندسى فوق سدة الأولمب، واستدعى إليه إله الأحلام، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين.

«.. فإذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون، فداعب عينيه، وأجثم على قلبه، وقل له، وهو يغط فى نومه العميق، أن الآلهة تأمر أن تصبح فتنفخ فى بوق الحرب حاضا عساكر على اقتحام طروادة.. فإن زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك فى شوارع اليوم ظافرة منتصرة بإذنه..»

وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمب، وأنطلق إلى معسكر أجاممنون فى أقل من لمحة، فداعب عينيه، وألقى فى روعه الحلم الكاذب، وعاد أدراجه إلى مولاة.

فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، هب أجاممنون من نومه مذعورا، وأرسل رسلة إلى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشرق، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربى، فصمت الجميع، ونظر بعضهم إلى بعض، وكل يظن أن لابد من أمر جلل، استدعى انعقاد المجلس فى هذه الساعة من بكرة اليوم!

ونفض أجاممنون فتحدث إلى القادة، وأخبرهم برؤياه، ولما فرغ،

نهض نسطور الحكيم المحنك، فسبح باسم زيوس وأثنى عليه، وقال :

لو أن أحدا غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ولرماه الجميع بجنة أو مس، ولكنه قائدنا وملكنا، وسليل الآلهة العظام، أجاممنون، هو الذى رآها، وهى لا شك موحاة إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا ملك الأولمب، وهو لا بد ناصرنا على أعدائنا الظالمين. فهلما أيتها الاخوان إلى رجالكم فأيقظوهم، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة، فإذا أشرقت ذكاء فسووا صفوفهم، واشحنوا عزائمهم، ولنتوكل على أربابنا، وليهتف الجميع باسم زيوس، ولنصل له، ولنسبح تسبيحا كبيرا.

فلما كان الصبح، ارتجف السهل والجبل، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند، وصار كل المعسكر كأنه خلية صاخبة من النحل.. تطن وتطن.. وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء معتكرة، لرعدها هزيم، ولريحها هزيم، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار.

وشرعت الرماح وأرهفت السيوف، وحملت المنايا كأنها الأغربة السود ترنق فوق الفرائس، وتدوم فوق الجيف..!

ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب، فشده أن يرى استعداد الجيش وتفرتة نفرة واحدة.. ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة.. الميرميدون!

فأوجس فى نفسه خيفة، وهاله أن يكون فى الأمر سر، ووقر فى قلبه أن غضبة أخيل لا بد أن تغضب السماء واستقر فى نفسه أن هذا الجيش العرمرم إلى الهزيمة المؤكدة، ووارد موارد الردى؟

وهكذا جبن القائد العام.. وندم على أن عقد المجلس الحربى..

فما أن متع النهار، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية، ويربضون فى مشارف الجبال، ورأى أن طروادة المنية تهزأ بكواكب

الهيلانيين وجيوشهم، حتى نهض فوق يفاع من الأرض، وهتف
بجنوده يقول :

«يا أبناء هيلاس : يا بنى قومي» :

لست أدري إلام تمتد بنا هذه الحرب، وحتام ننفى هنا فى هذا
المكان السحيق من الأرض؟!!

تسعة أعوام يا قوم، ونحن هنا بمعزل عن العالم، ننام فى الخيام،
ونأوى إلى السفائن، تلفحنا الرياح، ويثور بنا البحر، وتتخطفنا المنايا!
وعبثاً ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا فى هيلاس العريضة! ومن يدري! فقد
يكون بعض أبنائنا أو آبائنا قد نقلوا إلى هيدز، ونحن هنا نتصارع مع
الموت، من أجل امرأة أبقة لا عرض لها ولا شرف.

أبناء وطنى !

ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة؟ هلموا فاغمدوا هذه الرقاق
البيض، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف، ثم لنركب
أسطولنا الذى نخر السوس فى أخشابيه أو كاد، ثم لنعد أدراجنا إلى
هيلاس سالمين!

حرب!

«آية حرب هذه التى اشتعلت من هولها الرؤوس شييا».

آية حرب هذه التى يودى بأعز المهج، وتذهب بأغلى الضحايا من
نفوس الشباب؟! بل آية حرب هذه التى توقع العداوة والبغضاء بين
أخوين من أعز أبناء هيلاس، فيتراشقان بالفحش من القول، ويتبادلان
الهجر من الكلام، ويوشكان أن يلتحما فى نزال يودى بحياة أحدهما
من أجل امرأة؟!

«أنا - أجاممنون - أغضب أخيل أخى من لذة طارئة، ومتاع غير
مقيم! يا للهول»

« لتنته هذه الحرب، لتنته هذه الحرب.. ولنعد إلى هيلاس».



وأرسلها أجاممنون خطبة طويلة تفيض بالحق وتعترف بالواقع.

فصادفت من قلوب الجند المعذبين هوى، ولقيت منهم استحسانا وتحبيذا، وطربت لها نفوسهم التي أضناها الحنين إلى الأوطان، وشفها التوق إلى لقاء الأهل، ونبذ هذه الغربة الطويلة التي أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم.

وفكر كل في أبنائه وأبويه وأحبائه، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هذه الساحة المشجية، عسى أن يقضى الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية في راحة وهناء، بين أهله وذويه..

لكن الآلهة لا تريد هذا!

وكيف تنتهى حرب أثارها باريس بين ربّات الأولمب فى البدء؟

أليس هو قد قضى بالتفاحة لفينوس؟

أذن ففينوس تنصره وهى لذلك تقيه هوان الهزيمة، وذل الانكسار، ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب التى وعدته نعيما وملكا مقيما، إذا هو كان أعطاهما التفاحة؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل، وهى لذلك تصل ليلها بنهارها فى تدبير السوء له، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما!

ثم أيان يهرب من سخط مينرفا كذلك!

أليست مينرفا قد وعدته الحكمة التى لم يؤتها أحد من قبل، إذا كان قد قضى لها بالتفاحة؟

إن مينرفا هى الأخرى تتربص به السوء، وتود لو أظفرت به أعداءه فينلكون به، ويسقونه عذاب الهوان. لقضائه بالتفاحة لفينوس.

سمعت حيرا خطبة أجاممنون من علياء الأولمب، فأفزعها أن ينقاد الجنود له، وها لها أن يستعد الجميع للرحيل!

فاستدعت إليها مينرفا، وخاطبتها بصدد ما قاله قائد الهيلانيين، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرفا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى يقوم هو بإلهاب عاطفة الجند وتفتيح عيونهم على العار الأبدى الذى ينتظرهم فى بلادهم، إذا عادوا إليها من غير أن يظفروهم أربابهم بأعدائها، قانعين من الغنيمة بالإياب!.. بعد تسعة أعوام فى دار الغربية.

وانطلقت مينرفا إلى ساحة الحرب وكانت كالسحابة البيضاء فى دجنة الليل فيما بين جبل ايدا وشواطئ الهلسبنت، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤساءهم يتحاورون فيما قال أجاممنون، ورأت أوليسيز متجهما منقبض النفس مثقل الروح، يكاد ينشق من الغيظ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس، واستبشرت مينرفا بما رأت من هياج أوليسيز، فهبطت عليه رحمة من السماء، وكلمته قائلة، بحيث لا يراها أحد غيره:

«أوليسيز فتى ايثاكا وبطل هيلاس.

أسرعت إليك - إليك أنت - إليك يا أشجع جندى هنا، لأحذرك من أن تنخدع بكلام أجاممنون، إنها خدعة يا أوليسيز، أن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم، ويخبر هممكم، فلا تنطل عليكم كلماته.

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافا وثقالا لتغتربوا عن أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم بل أضل سبيلا.

أوليسيز : ما ذنب القتل الأبرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة، تتركونهم فى حمرتين من مقابرهم : حمرة الدم.. وحمرة الخجل، مما فرطتم فى حقوقهم وتهاونتم فى كرامتهم؟

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز؟

أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بأفجنيا؟

أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه؟

واستهزاء الأمم بكم، وضحك القبائل عليكم؟!
لا يا أوليسيز! هلم فحرض القادة، وانفخ من روحك فى قلوب
الجند...»

واستمع أوليسيز إلى ربة الحكمة، فحقق قلبه فيه، وثارت نخوته،
والتهبت مشاعره، وعاهدها على اضرار المعمة، وتأجيج لظى الحرب.
وانطلق بين الصفوف، فلقى نسطور وأجاكس وبالاميديز، وغيرهم
وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه، فحذرهم «من الانخداع
بكلمات أجاممنون، لأنها حيلة يريد بها سبر عزائمهم، واختبار همهم»!
كما تحدثت إليه مينرفا.

وحضهم على التضحية والصبر، وحرصهم على الجلد والاستبسال
وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعا إليهم، ثم حذرهم من العار
السرمدى الذى يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طرودة!

وتغيرت الحال!

وتجددت روح الحرب، وفتح كل جندي عينيه على مجد الوطن!
ونجح أوليسيز!
ونجحت مينرفا.

ودهش أجاممنون لهذا التحول المفاجيء فى نفسية الجيش، تلك
النفسية التى كانت منذ لحظة، مزيجا من القنوط واليأس، وخليطا من
السرور المخامر لمجرد الايدان بالعودة إلى الوطن، فصارت تضطرم
تشوقا إلى الحرب، وتتحرق شوقا إلى امتشاق السمهرات الظوامى.
وما وسعه إلا أن يثنى على شجاعة الجند، و.. عدم استسلامهم، و..
وترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء.

فكان تحوله أعجب.. وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب.
ونظر الطرواديون من كوى أبرجهم، فراعهم التفاف الهيلانيين

بمدينتهم، واحاطتهم بها من كل جانب، وسرى الرعب فى قلوبهم ودعوا ثبورا كثيرا.

وكان يحنقهم أن باريس الذى جر عليهم كل ذلك الكرب، وكان السبب العقيم لهذه الحرب، يقر فى مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها، ويساقياها كئوس الهوى وتساقيه، غير أنه لما يغص به قومه من كئوس الردى والحمام.

وخرج باريس لشأن من شئون لهوه. وعبث باطل من أغراض غرامه الدنىء، فسمع الناس يلغطون ويلمزون، ويلوكون اسمه بالسنة الهوان والتحقير، فتار ثائره وفارت حماسته، وأقسم ليرين الجبناء من ضروب شجاعته مما تنخلع له قلوبهم، وتطير من حوله البابهم..

وذهب من فوره إلى أخيه هكتور، فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء، ويخترق الصفوف حتى يكون فى وسط الميدان، وينادى قائد القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم، ثم لتكون مبارزة بين باريس، على أن يمثل الطرواديين، ومنلوس على أن يمثل الهيلانيين، فإذا فاز أحدهما بصاحبه، وأظهرته الآلهة عليه، عاد إلى قومه فرحا مسرورا.

وطرب منلوس لما اقترحه غريمه الذى كان كالساعى إلى حتفه بظلفه وصمتت الأفواه، وحملقت الأنظار، وتلمس كل جندى فى الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب، وبرز منلوس وبرز إليه باريس، ومرت الأحداث سراعاً أمام عينى ملك اسبارطة، فذكر خطاب هيلين وصدود هيلين، وذكر يوم الحيرة الكبرى، يوم رضيته من دون خطابها، الكثيرين بعلا كريما لها، وذكر يوم احتفاله بباريس واحتفال اسبارطة كلها به كضيف عظيم لملكها، وذكر أن هذا الفارس الذى تزلزل من تحته الأرض، إن هو إلا الغادر الختال الذى اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه.. ثم ذكر كيف فرت زوجته معه تحت جناح الليل.. ذليلة للذتها، أسيرة هواها.. فتارت فى

قلبه زوبعة من الجنون، وتفجر في رأسه بركان من الغضب، واتقدت في عينيه جحيم بأكملها من النقمة، واندفق الدم يغلي في ساعديه، وانقض على خصمه فأوشك أن يحطمه.. لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذي كان يحمي باريس منه، واقفا إلى جانبه.. وخلفه.. وأمامه.. ومن فوقه ومن كل جهة جاءه منلوس منها، يذود عنه، ويتلقى ضربات الأسبرطية فوق درعه المسروبة، السابغة ذات الحلقات.

ماذا، إنها هي، هي بعينها، هي فينوس لقد أسرع إلى باريس تحميه من ذلك الروح الأكبر، فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته، وهو الذي حكم لها بالتفاحة..

لقد رفعته إلى عل!

طفق منلوس يبحث عنه ههنا وههنا.. ولكنه لم يعثر له على أثر!

لقد ذهبت به ربة الهوى، إلى مخدع الهوى.

إلى هيلين.

ولكن ويل له من هيلين. لقد كانت تطلع على الساحة فترى مبارزة البطلين، فهالها أن يبطش ملك أسبارطة بباريس، لولا هذه السحابة البيضاء التي كانت تحميه دائما من خصمه وتقيه..

وعذلت هيلين على هذا الفرار المشين، فكان عذلها له أشد عليه من ضربات منلوس.

مهر كسة بين الآلهة

وقفت ندمانة الآلهة «هيب» اللعوب الهيفاء،
تسقى أربابها خمرا.

وكان الأولمب يزخر بساتته.

فهذا زيوس العظيم مستويا على عرشه
الضخم المرصع بالجواهر والياقوت.

وهذا أبولو سيد الشمس، وصاحب القوس،
يوقع على قيثارته أشجى ألحانه.

وهذا فلكان، الحداد القذر، قد بدا في حلة
جديدة ذات ألوان صارخة.

وذاك مارس الجبار، إله الحرب، يلاعب
الأسنة، ويداعب الصعدة المرنة.

وذلك هرمز، قائد الأرواح إلى هيدن،
ورسول الآلهة إلى سكان الأرض، يرسل في
الملا نظراته الساخرة، ونكاته المنكرة.

وهذا حيرا، مليكة الأولمب، تود لو تضرع
النار في قصور مولاها، إن لم يقض بانتصار
الإغريق!

وهذه مينرفا.. الحكيمة الراشدة.. تصمت

صمتا أبلغ من وحى الأولمب كله، ترى هل تستطيع تسخير هذه
العصبة من الأرباب لسحق باريس وقومه وأحلافه.

ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة.

وهيب اللعوب تسقى الجميع خمرا!

وللخمر الأولمبية، كما لخمير هذه الأرض، نشوة وسورة، ولها على
رؤوس أربابها صولة وسلطان، وهي مثلها تروى حتى تبلغ المشاش،
وتغلغل حتى تمتزج بالدم!

وهيب تروح وتجىء، حلوة بسامة.. كأنها مدامة!

وروى الجميع إلا حيرا!

وانتشى الجميع إلا مينرفا!

فقد كانتا لا تفكران إلا فى الساحة الحمراء، وما يقع فيها من بلاء!

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهما من باريس ومن قوم
باريس؟

ألم تنصح عروس الماء، أيونونية، لباريس ألا يصيخ لفينوس، وأن
يعطى التفاحة لمينرفا؟

ألم تحذره من التعرض لنقمة الربتين العظيمتين؟

غير أنه أبى!

وآثر الجمال والحب، ثم الشقاء والحرب، مع فينوس، على القوة
والصولة، والملك الكبير، والحكمة والنورانية، مع حيسرا ومينرفا.

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها.

وليس اليوم أروح إلى قلب حيرا، وأرضى إلى نفس مينرفا، من أن
تنصرا جحافل الهيلانيين، وتثبتا فى ساحة الحرب أقدامهم.

ولكن أخيل متفرد في معسكره وهو مفتود محزون.

وقد وعدته أمه بأخذ الثأر له، وكلمت في ذلك زيوس سيد الأولمب،
ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامها القديم حتى زلزلت أركانه،
وسلبت جنانه، وانتزعت منه وعدا قاسيا بأن ينتقم من أجاممنون،
وجنوده لأخيها العزيز.

تانكم حيرا ومينرفا.

وذاكم زيوس كبير أرباب الأولمب.

أما أبوللو، فهو لا ينسى ما فضحه أجاممنون به في بنت كاهنه،
وهو ما يفتأ يتربص بالقوم، ويدبر لهم سوء المنقلب .

وأما فينوس..؟

فتلك أبر بباريس ويقوم بباريس، وهي أبدا ستحمي بباريس وجند
باريس! لأنها ستذكر له أبدا أنه نصرها على حيرا.. كما نصرها على
مينرفا.

وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة، وأضرمت
النيران في قصور الأولمب.

فللآلهة في جبل «أيدا» معسكران، كما لبنى الموتى حول طروادة
معسكران.



أوشك منلوس أن يفتك بباريس، لولا أن أنقذته فينوس ولقيته هيلين
عازلة مغضبة، ولكنه نسي نفسه وهو معها واستماحها أن تدع حديث
الحرب إلى حديث الحب.. «على أن أعود فأثار لنفسي من منلوس
العنيد، الذي لولا حماية مينرفا وحيرا له لبطشت به وجعلته خيرا في
الذاهبين..».

وكان العهد بين بريام الملك، وأجاممنون قائد الهيلانيين، أن يلقي المغلوب السلم، فلما قر بارييس، تقدم أجاممنون، وطلب أن يسلم الطرواديون هيلين الأرجيفية، وأن يقدموا دروع بارييس، وسيفه، وفرسه، وجميع عدته الحربية، أثرا خالدا يحتفظ به الاغريق ويتوارثونه رمزا لمجدهم الحربى، وتذكارا لفوزهم وغلبهم.

بيد أن الطرواديين رفضوا هذا : «لأن أحدا من المتبارزين لم يظفر بالآخر، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فتكون شاهد النصر».

وكانت بين الفريقين مهادنة.

فخشيت حيرا ومينرفا أن يطول أمدھا، واتفقتا على أن تذهب مينرفا هذه المرة أيضا فتضع حدا لهذا السلام الذى يشمل الساحة، وأن تثير الحرب من جديد.

وذهبت مينرفا فاندست بين صفوف الطرواديين، وسحرت نفسها فبدت فى عدة «لاودوكوس» البطل الطروادى وهيئته، ثم وترت قوسها وأرسلت سهمًا مرأشا نفذ فى جسم منلوس، إذا هو يبحث عبثا عن بارييس.

وتجددت الحرب بين الفريقين بسبب هذا السهم، فكانت حربا زبونا طاشت من هولها الأحلام، وبلغت القلوب الحناجر، وزاغت الأبصار فما ترى إلا حميما.

وعز على فينوس أن ينهزم جند طروادة، وهم أولياؤها وصنائعها فذكرت أن لها فى أرباب الأولمب إلها هيمانا يترضاها ويلتمس كلمة منها تشفى قلبه الخفق، وتداوى هواه الثائر، وأعصابه التى مزقتها الحب، وأذابها حر الهوى، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر، أن يقوم من فوره فينفخ من روحه فى قلوب الطرواديين، ويؤيد بنصره صفوفهم.

ذلك هو مارس، مسعر الحروب ومورى لظاها.

وطرب الطرواديون لوجود رب القتال فى صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضراما، ويصلصل دروعه فيوقع فى قلوبهم الرعب، ويثير فى نفوسهم الهلع، ويروعهم ترويعا..

وكانت إلى جانبه فينوس تنقث فيه سحرها. فكان لا يلقى فارسا إلا طعنة فيكبه على وجهه، ثم يشكه فيجفوه (١) من الأرض، كأنما يتخذ منه هزوا وسخريا.

وهرع أبولو فأمطر الهيلانيين وابلا من سهامه التى ما مست أحدا إلا أردته، وما قصدت صدرا إلا شقته.

وساء منقلب الهيلانيين.

وعز على حيرا ومينرفا أن ينهزم أصحابهما، وأن يصلوها من مارس وأبولو نارا حامية، وهزيمة منكرة، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس القوية، وسهام أبولو المفوقة، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التى سلطها عليهم كبير الآلهة زيوس، سيد الأولمب، الذى أصبح كل همه أن ينتقم لأخيل ابن الجميلة ذيتيس من هؤلاء الإغريق فاكرى الجميل.

وعبست حيرا عبوسا ثقيلا، ودعت إليها مينرفا، وجلستا تفكران وبدا لهما أن يذهبا إلى الأولمب فيستدعيا رب البحار العظيم، نبتيون، فيضع حدا لهذه القسوة التى ييديها مارس وزميله أبوللو.

ولكن كيف السبيل إلى غل يد زيوس، ورد صواعقه التى تنهمر على الإغريق من عل، فلا تبقى عليهم ولا تذر؟

آه، لا سبيل إلى ذلك إلا بمنطقة فينوس السحرية! ستوس! تلك

(١) جفاء من الأرض ، أى رفعه .

المنطقة العجيبة التى تغوى كل من نظر إليها، وتشعل فى قلبه لظى من الهوى وضراما من الحب.

لا بأس اذن ممن ممالقة فينوس حتى تنزل عن منطقتها أياما لمليكة الأولمب وكبيرة رباته، ثم لتذهب مليكة الأولمب بمنطقة فينوس لتعبث كثيرا - أو قليلا - بقلب زيوس، الذى ما يفتأ يرسل صواعقه على الإغريق من جبل «ايدا»، وليس شك فى أنه سيصبو حين يرى منطقة فينوس تزين خصر حيرا وتبرز مفاتن صدرها، فإذا عصفت به فورة قلبه، وحاول نظرة واحدة من أثر زوجاته إليه، فلا بأس من أن تمنحه اياها.. ولكن.. لتنتهز سكرته العميقة وتسלט عليه إله النوم الجبار - الذى هو دائما فى خدمتها أينما سارت - فيغرقه فى سبات عميق، ويظل به يداعب أجفانه، ويغسل أحلامه، حتى يكون نبتيون قد انكشف لمارس وصاحبه، وأجنادهما، فيقذف الرعب فى قلوبهم، ويزلزل أركانهم، ويوهى عزائمهم، ويختلط حابلهم بنابلهم فيولوا مدبرين لا يلوى أحد على أحد.

وقد أفلحت خطة حيرا.

فهذا مارس لا يكاد يلمح نبتيون حتى يذكر هذه الأيام السود التى صب عليه فيها رب البحار عذابه (١)، فيخفق قلبه وترتعد فرائصه.. ويكبو زنده، وتذهب ريحه وتتحطم شوكته.. ثم يقذفه نبتيون بسهم، وقل أن تطيش سهام نبتيون، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة، وينفث من الحلبة الحمراء موليا عقبه، ساخطا على فينوس، وما يجر عليه غرام فينوس.

ولى فى أثره أتباعه الطغاة، آلهة الشرور، ايريس رب الشغب، وفويوس رب الرعب، وميتوس رب الخوف، وديميوس رب الفرع، وباللو رب الهلع.. عصابة الاجرام وشرذمة الآثام، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب.

(١) إشارة إلى الأسطورة القديمة التى وقع فيها مارس أسير للماردين الجبارين بتدبير نبتيون.

وفاق الإغريق مما حل بهم من روع..

ونظروا فرأوا مارس وملاؤه مولين الأدبار، والدم يتدفق من
جراحهم جميعا، فأفرخ روعهم، وأمن سربهم، ثم لموا شعثهم وهجموا
على أعدائهم هجمة رجل واحد، فأدالوا لأنفسهم، وثأروا لكبريائهم،
وانصرفوا يتفقدون جرحاهم، ويحرقون جثث قتلاهم الشهداء.

ياللهول!

لقد قتل أمبريوس البطل، قتله تيوسين، غير راحم شبابه، ولا مبق
على عوده الفينان!

وامفيماخوس!! لقد صرعه هكتور بن بريام، غير راث لأمه العجوز
الهرمة. ولا آبه للباكين حوله والمعولين.

وديوميدي!! زين شباب هيلاس، وأثر فتيانها إلى قلوب الآلهة! لقد
جرحه باريس بسهم أوشك أن يكون قاتلا! لولا أن أدركه جنوده
فأسعفوه وضمدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه!

وأجاممنون! لقد برز في المعركة، ودل على الفروسية التي بهرت
الطرواديين، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه، فارتد على عقبه يصرخ
ويتلوى!

وأوليسيز!! أوليسيز العظيم!! لقد أرسل إليه سوكوس، أمهر رماة
طروادة، بسهم مفوق، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم ويخر إلى
الأرض فيتلوى كمن لدغته أفعى، ولولا أن أدركه أجاكس ومنلوس
فأسعفاه لكان من الغاربين!

وأجاكس كذلك! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة!!

ومخاون! لقد روعه باريس هو الآخر فشكا وبكى!!

أرأيت!

لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الهيلانيين ولولا أن أغاث
هؤلاء نبتيون القاهر، لكانت ملحمة فاصلة في هذه الحرب الشعواء!

وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين، وبرهنت لهم على أنهم
ما لم يخض معهم المعركة أخيل، فلا نصر لهم ولا غلبة ولا محيص
من هذه الهزائم المتتالية، والجروح التي لم تكن قصاصا لولا أن
أدركهم نبتيون!

عرف اليونانيون هذا، وآمنوا بعد الفزع الأكبر أن لو كان أخيل
بينهم يوم هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه، ولأظفرتهم ألهمتهم
بأعدائهم، ومارس وملئه، وأبوللو وجنوده جميعا..

وانطلق نسطور فعرض على أجاممنون مصالحة أخيل وإرضاءه،
وبعد لأي رضى القائد العام أن ينطلق نسطور وأوليسيز وأجاكس
وفونيكس إلى معسكر أخيل مندوبين عن القائد، ليعرضوا عليه صلحا
شريفا، وموثقا كريما يرضاه، الطرفان، ولكن أخيل يثور لكرامته،
ويأبى إلا.. بريسيز.. ثم لا يشترك في حرب ضد الطرواديين.

ويلح أوليسيز على صديقه القديم.. ولكن صديقه القديم لا يزداد إلا
شماسا، ولا يزداد إلا أنفة..

ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل، ويكون قد خلبه بيانه،
وبهره حسن منطقه، وطلاقة لسانه، وعظيم شجاعته، فيؤثر البقاء معه،
مخاصما الهيلانيين جميعا حتى يرضى أخيل فيتركه أوليسيز
وصاحباه، ويعودون إلى أجاممنون.. بخفى أخيل!



وهكذا تتم كل هذه الأحداث الجسام..

وزيوس يغط فى نومه الهادئ الناعم يوما بأكمله.. حتى يبطل

السحر، وتذهب الرقية، فيهب الإله الأكبر من سباته حيران آسفا.. لأنه ينظر من ذروة جبل ايدا، فيرى نبتيون الجبار يصل في ساحة طروادة، ويجول، ويصرع الأبطال، يجندل الأقران.. ويرى مارس العتيد، وجنوده الأقوياء، يفرون من وجه سيد البحار، لا يلوون على شيء..

وينظر أيضا إلى أخيل لا يزال منفردا في فسطاطه، قريبا من سفائنه والحزن يمضيه، ويوهى جلده، فيحزن الإله الأكبر وينفذ ايريس إلى نبتيون ليزجره، ويأمره أن يغادر المعمعان في الحال، وإلا أرسل عليه سيد الأولمب صواعقه، وهناك لا يكون له حول ولا تكون له قوة.. ويغادر نبتيون الموقعة، ولكن بعد أن دمر الطرواديين تدميرا!

أندرومداك

استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين.
وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار،
وأن يفر في أثره أتباعه آلهة الروع، وفينوس،
أصل البلية التي حاقت باليوم لينتقل النصر
طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين.

وبرزت شمس اليوم التالى على الساحة
الملطخة بآثام الإنسانية، المضرجة بأوزار
الآلهة، المصطبغة بدماء الموتى.. لتشهد من
جديد صراع الضغائن وتداول الأحقاد، وأخذ
السخائم بعضها برقاب بعض، وهذه الكتل
البشرية يفنى بعضها بعضا.

واشتد الهيلانيون فى طلب الطرواديين،
واستبسل هؤلاء، فكانت أمواج الغزاة تتكسر
على صخور شجاعتههم.. ولكنها لا تتلاشى.

وعظم الخطب، ومادت الأرض، وانعقد وهج
الحرب، مما تثير الخيل من هبوات، واشتجرت
الهيحاء، حتى وكأنها قطع من الليل، وصلصلت
الدروع حتى وكأنها عواء ذئاب الجن واستشرى
الشر حتى لا ترى إلا منايا وآجالا، فى قتال
ونزال. وأحس جنود طروادة بلغوب الوغى،

وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحضهم ويحرضهم، بيد أن الشجاعة لا تغنى فى موقف الموت شيئاً، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يصلون أعداءهم وأبلا من السهام، والرماة يساعدونهم من فوق الأبراج..

لكن الهيلانيين ما تقترب لهم همة، ولا يصل إلى حماسهم كلال، فقد صمدوا فى مواقفهم، وثبتوا وصابروا، وأبدوا من ضروب البسالة والبأس ما حير ألباب أعدائهم، وجعلهم إلماً عليهم واحداً!

وفى عنفوان المعركة لقى هيلانوس بن بريام الملك، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد، ويرغى بين المحاربين الصناديد ويزبد، وكان هيلانوس خير كاشفى الغيب، وعرافى الطرواديين، وكان حبيباً إلى الآلهة، جميل الطلعة، بسام الثغر، حتى فى الحرب، وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم، صارماً شديداً الصرامة يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً، فلما رأى هكتور يعبس تلك العبوسة القمطرية لما يحقق بجنوده من أذى، ذهب إليه قدماً وقال :

«أى أخى! أى هكتور العظيم!»

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس فى صدره الحنون برذا لحر تلك الجحيم التى لفحت شجعان طرواده بزفيرها، وصاح به :

«هيلانوس! أنت هنا؟ ادع لنا آلهتك يا أيها العزيز!.. لقد عز النصر بعد إذ حسبناه فى أيدينا أمس.. ادع لنا آلهتك فقد عيننا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة!» .

- «هكتور! أصغ إلى ! لن تظفروا بهؤلاء ما دامت مينرفا معهم تؤيدهم، وتشد أزهرهم، وترد عنهم سهامكم، فتجعلها فى نحوركم!!»
«هكتور! هلم إلى القصر يا أخى، فائق والدتك المرزأة ثمة، فتوسل

إليها أن تذهب من فورها، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرفا، فلتبك عند قدمي تمثالها، ولتقدم الضحايا، ولتقرب القرايين، ولتحرق البخور المقدس، الممزوج بأفاويه والصندل وطيوب الهند، ولتنذر أن تذبح اثنتي عشرة بقرة من أبقار اليوم، فتصدق بلحومها، وتهب الكهنة شحومها، إذا وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة!»

وألح هيلانوس على هكتور، فألقى نظرة على المعركة، وكاد قلبه ينفطر على هذه الأشبال التي تسقط هنا وهناك، وفي كل صوب وحذب، لاقية حتوفها في سبيل اليوم، وذرف عبرات تذيب حنانا ورحمة، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى، فدخلها وقلبه يتصدع من الهم ووقف مرة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد لجنوده، رءوف رحيم..

وانطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات..

وهناك.. عند بوابة القصر، وتحت السنديانة الكبرى الوارفة، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم، وأمهاتهم كذلك، ازدحمن حوله يسألن عن رجالهن، هل أودى بهم حتف القضاء، وأرووا ثرى الوطن العزيز من دمائهم، أو لا يزالون يناضلون الأعداء، ويردون عن طروادة حمى البلاء؟

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر.. وها هو ذا يهرع في أبهته العظيمة، مارا بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة، ثم بالجواسق المذهبة ذوات الدمى والتماثيل، حتى يكون عند ردهة الملكة، فتلمحه أخته الجميلة ذات المفاتن، لاووديس فتجري إليه، وتلف ذراعيها حول ساقيه، فيتخلص منها برفق.. وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع إليه، وتهتف به :

د هكتور! بنى ماذا جاء بك؟ لم تركت الساحة يا ولدي! أهكذا تدع

أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور؟
لا.. لا.. لا أحسبك تتخلي عن جنودك لحظة، ولكن هلم إليّ ! إليك هذه
الكأس من أشهر ما عصر باخوس! رو ظمأك منها وعد إلى الميدان..
بيد أن هكتور يتجهم تجهمة مغضبة، ويهتف بها :

«أماه! حاشا يا أماه! حاشاى يا أعز الأمهات! لن تهرق الخمر
باسمى، وتلك دماء اخوانى تهرق باسم الوطن وتراق! حاشاى يا أماه
أن اتذوق قطرة واحدة من تلك الكأس وهناك.. فى سكير المعمة،
يجرع أبناء طروادة الأعزاء كنوس المنايا وذوب الحمام! أريقها على
مذبح ميترفا اذن! هلمى.. ولتك معك أزواج القادة والمحاربين جميعا،
فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتلة وحبركن المفوفة وانطلقن إلى
هيكل مينرفا، فصلين لها، وأحرقن البخور الغالى من الأفاويه والصندل
وأفخر طيوب الهند، ثم أركعن عند قدمى تمثالها المعبود.

وابكين بكاء طويلا.. وسبحن باسم آلهة الحكمة، واغسلن الأرض
عندها بدموعكن، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها
وغضبها، وأنذرن أن تقربن، لو فعلت، اثنتى عشرة بقرة من خير أبقار
اليوم، تتصدقن على الفقراء وأبناء السبيل والمساكين بلحومها، وعلى
كهنة الهيكل بشحومها».

«أماه! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا، بل لنا الهوان والهزيمة
المؤكددة.. وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء!».

وصمت هكتور! واربد وجهه هكيوبا!

وانطلق البطل إلى قصر أخيه.. إلى قصر باريس، فوجده يلهو
ويلعب، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التى تصطرع فى الميدان، فثار
ثأثره، وصب عليه شواظ غضبه.. «أنت! أنت باريس بن بريام! عجباً
وزيوس الأكبر! أنت هنا تلهو وتلعب. وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك
تحت أسوار اليوم. وتذوق الردى بجريرتك؟!»

وأطلق العنان للخيل، فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوى الطريق
إلى الميدان.

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات^(١)

وذهبن جميعا إلى هيكل مينرفا.. وصلين وبكين.. وغسلن بدموعهن
قدمى التمثال المعبود.. ونذرن لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن ينذر.
ولكن!

لقد أصمت مينرفا أذنيها! ولم تصغ لهذه التوسلات المكرومة.
ولم ترق لتلك العبرات المسفوحة، ولم تطمع أبدا فى ضحايا وقرابين
تكفر عن خطيئات باريس، ذلك الراعى المفتون الذى آثر الجمال الفانى
على الحكمة الخالدة، فقضى بالتفاحة لفينوس، ربة الحسن والحب تلك
الحية الرقطاء التى لدغت طروادة بأسرها فهى إلى اليوم تصرخ من
سمها الزعاف يسرى فى أرواح أبنائها، فينكل بهم - ويكاد يقضى
عليهم.. ولا ذنب لهم ولا جريرة، إلا لبانات الهوى الآثم، والغرام
الشائن والحب المحرم المهين!



وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان
بعيد، وأحس فى صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك زوجته العزيزة
عليه، الأثيرة إلى قلبه، شوقا يشبه وداع الحياة فى حرارته وأسرته،
وشوقا يشبه الاستمتاع الأخيرة من مباحج هذه الدنيا.. فى حزنه
الصامت ومعناه العميق!

وأحس كذلك بلوعة إلى التذود بنظرات من سكمندريوس طفله
الحبيب، هذه الهبة السماوية التى توشك أن تصبح نقمة من نقمات
اليتيم، إذا كان صحيحا لهذا الهاجس الذى وقر فى قلب هكتور، والذى
صور له أنه مقتول لا محالة..

وألح الشوق على قلب البطل، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية.

(١) suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوربيديز إحدى مسرحياتهما الخالدة.

وذهب من توه إلى مخدع اندروماك! ولكنه لم يجدها هناك، فبحث عنها فى الغرف والردهات والأبهاء، ولكنه عبثا حاول الوقوف لها على أثر!

وسأل عنها حشم القصر، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائما من القلق، وما تتفزع به روحها من الهواجس مادام زوجها يخوض غمار هذه الحرب!

فهل هى من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواصف المشتركة، أو هى من السماء الصافية التى لا يرتفع إليها غل، ولا يورى فيها زند عداء ولا تشب فيها سخيمة؟

وأخبرنه أنها يمت شطر برج طروادة الرفيع، تشهد منه ما يحدث فى المعركة من أهوال، وذلك عندما ترامت الأخبار أن الإغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة، وأنهم خضدوا شوكتهم، وفلجوا عليهم ونخبوا قلوبهم، وضعضعوا أركانهم... فريعت أندروماك وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها، وسندها فى هذه الحياة السوداء..

ونهد هكتور إلى البرج، فلقيته اندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مغضن، وصدر ينوء بما فيه من الهموم.

وكانت تقف ابنة ايتيون، الجميلة البارعة، وعلى ذراعها المرمى الفاتن طفلها الرضيع الشاحب، الذى حل بهذه الدنيا الهائلة ليكون عبرة سخيمة من عبرات الحزن القاهر، ثم ليكون مأساة وحدة حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين، وإلا هذه المدينة الكاسفة التى تعصف بها آلهة الحرب من غير ما شفقة ولا مرحمة!

وتعلقت أندروماك بذراعى زوجها، وشرعت تنظر فى عينيه المبللتين، وتقول له :

«هكتور! رجلى وذخري من هذه الحياة! إلى أين أيها الحبيب؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية؟ أهكذا قضت الآلهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدى والأسى السقيم؟ هكتور ألا تفكر فى سلم يرفرف على ربوع الوطن، ويبقى على هذا الشباب الذى تعصف به رياح الحرب؟»
«رجلى..»

إن آفا من الهواجس السوداء تضغط على قلبى تحدثه بالعقبى
الوخيمة : والأيام البالية القريبة..
« هكتور..»

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بنى وطنى تحدثنى عن مأساة أبى،
وأخوتى السبعة، والمئين من أهلى، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة،
وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين!
لقد هرعوا إلى هذه الساحة من قبلية، ملبين نداء الملك، الملك
التاعس، أبى، الذى سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر فى ظل أسوارها
نومة لا قريرة ولا هائلة.
هكتور!

لقد نام أعز الأباء فى تراب ساحتكم دفاعا عن مدينتكم، ولكن
المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بنى جلدته، ولكن
المأساة أبت ألا أن تكون أمى.. آه يا أمى العزيزة. أن تكون هذه الأم
صفحة من صفحاتها التى تفجر الدم فى القلب، وتضرم النار فى
الحشا..

لقد ساقها أخيل يا هكتور فى جملة السبى، ولولا القود الكبير،
والفدية الغالية التى بذلناها من أجلها، لكانت إلى اليوم، لو مد فى أجلها
أحدى خادمت الأعداء الذليلات، اللاتى لا تقوم لهن فى هذا الأسار
عزة، ولا يقدر لهن أحد شأنا، لكنها سقطت هناك، فى هامش هذه
الساحة الظالمة، ضحية سهم مراش من قوس الربة ديانا، فكأنما

رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها التقى الطاهر. بعد إذ لوثته
أحداث الدهر بذل الأسار!

هكتور!

كل هذه النوازل هدت نفسي، وحطمت قلبي، وأخمدت مشاعري،
وجعلتني يائسة تعيسة موهونة لا حول لي.. لولا أنك إلى جانبي تأسو
جراحي وتؤنس وحشتي، وتشيع نورا متلألئا في ظلمات حياتي..!
فأنت لي اليوم أب نعم الأب، وأنت لي في وحدتي بقلبك الحنون أم نعم
الأم، وأنت لي أخ، بل أنت لي كل شيء في هذه الدنيا.

هكتور!

ابق إلى جانبي فأنا لا استغنى عنك بأب أو أم أو أخ، أو بمملكة
يزين مفرقي تاجها المشرق، ويشد يميني صولجانها الرنان!
ابق إلى جانبي وارع هذا الطفل، ولا تسلمه وتسلمني لليتم والشقاء.
هكتور.

إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمنديوس، فردّه عنه، وادفع
عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبذك، وحبّة قلبك، واستشعر نحوه
حنان الأب الرحيم، ولوعة الأم المفثودة!

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظرها نور الحياة، وحبس منطقها كمد
ممض، وحزن أليم، ووقف هكتور مبهورا لا يحير، ينظر إليها مرة وإلى
ولده أخرى، ثم يلقى على طروادة نظرات.

واستيقظ بطل اليوم من غفوته الصاخبة، وانطلق لسانه من عقاله
يقول :

«اندروماك! أيتها الحبيبة! اسمعي إليّ.

«لا تخالي يا أعز الناس أن قلبي قد تحجر فلم يخفق لكل ما ذكرته
من قبل ! لقد خفق كثيرا بمثل هذه الهواجس ! بل هو قد ذكرك، وقد

تصور أن هكتور مقتول، وكأنك كما ذكرت عن أمك في جملة السبي،
وأنتك تؤوبين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس! وإن القائد الغليظ
قد ضمك إلى حريمه، أو بالغ في الإيذاء فجعلك إحدى سراريه أو
خدمه، كلما مر بك أحد أشار إليك بالبنان : «مسكينة! هذه زوجة هكتور
فتى طروادة، وابن ملكها المقدام، البطل الذي سفك الدماء وسعر
الهيحاء تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة، كسيرة القلب، مهیضة الجناح،
بأمر السفلة والأخساء»!

لا يا أندروماك! لقد ذكرت ذلك جميعا، ومن أجل هذا فأنا لهذه
الحرب، وأنا لهؤلاء الأعداء! سأحاطمهم، سأدك الأرض من تحتهم!
سأسقط السماء عليهم كسفا.. من أجلك! ومن أجلك يا أندروماك! لا.
لا.. بل من أجلك طروادة! يا وطنى. يا بلادى»..

وسكت فتى طروادة قليلا، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها، فتقدم
إلى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم : ومد يده يريد أن يأخذ
سكندريوس فيداعبه أو يودعه، ولكن الطفل صرخ مروعاً من هذه
الخوذة النحاسية المذهبة التى تحمى مفرق أبيه وابتسم والداه برغم
حزنهما، ورفع هكتور الخوذة وألقاها على الأرض المعشوشبة، وتناول
الطفل فأرقصه قليلا حتى انفرجت شفاته عن ضحكة عالية. فلثمه كما
تلثم العاصفة فننا وارفا فتلقحه، ودفع به إلى حضن أمه.

وانطلق يطوى الطريق إلى المعمة!

بتر و كسلوس

إن يكن قد أصاب الطرواديين قرح، فقد
أصاب الهيلانيين قرح مثله.

ذلك أنه ما كاد نبتيون يغادر حومة الوغى،
صادعا بأمر الإله الأكبر، حتى أفاق الطرواديون
وأحلافهم، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين
غادر الحومة مارس وزبانيته.

أفاق الطرواديون اذن، وصحبا زيوس من
رقية حيرا، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على
جنودها من شائتي أخيل، وإلا أن يحقق بهم
مكر هذا السحر الذي ملأ جفنيه، وأغلق سمعيه،
وأطلق أيديهم في أبناء طروادة يضربون منهم
كل عنق كريم وكل بنان!

وما هي إلا أن لم الطرواديون شعثهم،
ورتقوا فتقهم، حتى استطاعوا أن يعيدوا
الزحف، ويأخذوا أعداءهم المزهوين بنشوة
النصر، على غرة منهم، ويطلع سيد الأولمب من
ذروة جبل ايدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس، ثم
يسلط عليهم صواعقه، ويفتح عليهم السماء
فتمطرهم بعذاب واقع، ليس له من دونه دافع،
إلا أن يثار لابن ذيتيس، حببية القلب.. ومنية
النفس!

وفزع أوليسيز إلى رمحه..

وأجاممنون إلى سيفه..

وديوميد إلى صعدته..

وأجاكس إلى جرازه..

وفزع الجنود إلى أسلحتهم يشحذونها، وإلى دروعهم يلبسونها،
وإلى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها.. وإلى الواقعة فيخوضون
خبارها، ويثيرون غبارها.

ولكن.. بلا جدوى!

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر، وضيق عليهم حتى نظروا إلى
الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا، ورأوا إلى هكتور كالأسد الهصور يزلزل
الساحة بزئيره، ويثير في قلوب جنوده الحمية بأقدامه، وأينما توجه
كشر الموت في ركابه، وقطرت المنية في سنان سيفه، وانقذح الشرر
في حوافر خيله، وتناثر الزبد من أشداقه، فيكون سما في قلوب
الهيلانيين.

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجيء، وشاعت الخيلاء في
أعطافهم حتى أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثرا بجراحه،
وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد، وديوميد محمولا إلى سفينته
كمن يجود بروحه، وأجاكس العظيم يولى دبره غير متحرف لقتال..
فأوقدوا مشاعلهم، وأججوا نيرانهم، واعتزموا أضرامها في أساطيل
الأعداء، ليكفوا طروادة شرورهم، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم، وليتم
نصرهم..

وهنا ؟!

انتفض بتروكلوس الكبير، صديق أخيل، وأعز الناس عليه، وجذوة
الحماسة المتأججة في ضلوع الميرميدون!

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم إلى البحر فتلقى بعنادها فيه، ثم يسبح منهم من يسبح إلى الأسطول الحزين الذى بدا عليه كأنه يرثى لرجاله، ويبكى على أبطاله، ثم يغرق منهم خلق كثير، فيبتلعهم اليم.. إلى غير عود.. ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة، يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين.. ثم نظر أخيرا فرأى إلى حملة المشاعل والنيران يزحفون إلها فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية، لو أعمالوا منجنيقهم فى قذفها لأصبح الأمر غير الأمر، ولأتوا على آخر قوة لبنى قومه، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم! ولعاد الميرميدون كاسفى البال يحملون إلى هيلاس أنباء مصارع إخوانهم، الذين تولى عنهم أخيل وجنوده وهم أشد ما يكونون حاجة إليهم، ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التى بينه وبين أجاممنون حتى فى هذه الساعة العصبية، فينهض لنصرة إخوانه اليونانيين، وليدفع عنهم هذا البلاء الذى حاق بهم، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التى تنوشهم وتمزق صفوفهم..

ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون إلى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين. يجرون أذيال الخيبة، ويللمون أكفان الفشل، فتارت فى قلبه نخوة الجندى الباسل، واشتعلت فى أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التى ملأ بها السهل والجبل، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التى تتدافع إلى البحر.. فكأنها تفر من موت إلى موت، وتنجو من حمام إلى حمام.. فذهب من فوره إلى أخيل، واقتحم بابه غير مستأذن، ثم قال :

«أخيل!»

«فتى هيلاس وغوثها فى كل روع!»

«يا سليل الآلهة، المترفع عن الدنيا!»

«أرأيت؟!»

«ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة، فلم

ينهض أخيل لنصرتهم؟ وماذا تحمل إلى هيلاس من أنباء فى الغد غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة؟ وكيف تلقى الأمهات المعولات على أبنائهن؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذى بدت بوادره، وأخيل العظيم لا يحرك ساكنا؟ وكيف نتقى نقمة الشعب الذى ندبنا لهذا الأمر إذا خنا أمانته، وبددنا ثقته، وحطمنا آماله؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التى أحسب أننا خدعنا بطروادة العيش فيها والأحاديث المعسولة عنها؟»

«أخيل!»

«بل فكر معى إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة فى دمائنا، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم، وتحرق سفنه، أم تعتزم غزو هيلاس العزيزة، لتتأثر لهذه السنين السود التى أذقناهم طوالها رهق الحياة وخبائة العيش!»

«ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المراع، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج، وتذل لعزته البحار!»

«أخيل»

«انظر إلى الميرميدون يكاد يقتلهم الغيظ على هذه البلاد التى أخدمت سورة الحرب فى نفوسهم، وأطفأت جذوة البطولة فى قلوبهم، انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة اخوانهم، وليلقوا على هكتور درسا فى النزال لا ينساه آخر الحياة!»

«ما لك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل؟ إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم، ويدفنون سخائمهم، ولا يباليون ألف متعسف أفاك مثل أجاممنون! إن هذا يوم كله للوطن من دون أيام الدهر جميعا، فإذا أفلتت فرصته من أيدينا، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدي الهيلانيين جميعا، ولن يقال من سبب إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصره الوطن، وفى سبيل اشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن وأبناء الوطن ومستقبل الوطن!»

«إيه يا فتى هيلاس، وحامى ذمارها إذا اشتد بها الكرب»
ما لك تصمت هكذا كأنك لا تسمع إلى الف قرن تناديك، وتضع
ثقتها فيك؟..

أنا زعيم لك يا فتى هيلاس، إن هذه الجحافل الطروادية سترتد
على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرة عليهم إذا رأوا خوذتك التى تكسف
بالآلاتها شمس الضحى، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التى تزين
ذؤابتها!..
«أخيل!».

رد على أعز الناس عليك، فالظروف أحوج من المطل، وأقصر من
هذا الصمت، والساعة مفزعة مروعة، وإخواننا فى الوطن والآلهة
يصرخون ويموتون.
«أخيل»

إن كان يعز عليك أن تحنث فى عزيمة التى عزمته، فاذن لى أن
ألبس خوذتك، وأمتشق سيفك، وأحل فى دروعك السوابغ، ثم أقود
الميرميدون باسمك فأرد عادية القوم، وأجير اخواننا الهيلانيين!

وكان بتروكلوس يكلم أخيل وكأنما كان وحى السماء يتنزل على
قلب البطل، بلاغة وحرارة وقوة إيمان وثبات يقين. ونفسا تجيش
بالحب وأقداس المنى لوطن مصاب فى أبطاله، منقوص فى عزائم بنيه.
يتلفت من خلف البحار، يرى ماذا يصنع أخيل فى هذا الروع، هو
وجنوده الميرميدون.

وهب أخيل من جلسته الخاملة، وأخذ يدي بتروكلوس فى كلتا يديه.
وطبع على جبينه المرتجف قبلة مهر بها صك التضحية فى سبيل
الوطن الشقى. وقال لصديقه :

«بتروكلوس! أخى! يا أعز جنودى على!».

«أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئابة، فلا. ولكن اذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد، مادمت تؤثر صالح الوطن، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين.

«بتروكلوس! لا يدر بخلدك يا صديقي الكريم أنني انتويت أن اغضب غضبة لا انتهاء لها، ولكنني أمرت أن أنتظر حكم السماء بيني وبين خصمي الذي لم يتورع أن يهتك أمر السماء. فيسلبني ثمرة خلعتها رمحي على، وقدمها لى جيش بأسره.. هلم يا بتروكلوس فالبس دروعي وأسبغ عليك لأمتي، وشرف خوذتي بجبينك، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون، ولتبرهنوا لناكر الجميل أننا سبب مجده وخير جنده، ونخبرته كلما حزبه كرب»، أو ألم به خطب.

هلم.. هلم..»



وانطلق أخيل فصاح بجنوده، فهرعوا إليه فى سفنه الخمسين، الراسية بمعزل عن سائر الأسطول الهيلانى.. وكم كان رائعا أن يتحرك أسطول أخيل، فى أخرج ساعة مرت بهذا الجيش المغير، الذى وقع فريسة كله فى قبضة الطرواديين! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل، وكأنها الخلاص من الموت الذى يلاحقهم، والمنايا التى ترقص فوق هاماتهم وهى مع ذاك فيما خيل لهم تزور عنهم وتشيح عن نجدتهم، لأنهم لؤموا مع زعيمها، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصا له.

أقلع أسطول أخيل، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن حين يهبطون إلى الشاطئ من كبسة الصفوف الظافرة، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين.

وما هى إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه، وكأنهم كسف من العذاب أرسله نبتيون رب البحار، من أعماق اليم ليقتذف بها فى قلوب الطرواديين!

وطفق أخيل يجيشهم، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم، فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل، والقائد المناضل، منسيتوس بن سبرخيوس، ابن السماء وصاحب العزة القعساء.. وعقد لواء الجحفل الثانى لابن هرمز المقدم، الفتى يودوروس، الذى طالما كان جزءا فى فؤاد الردى، ووجلا فى قلوب المنايا! ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بيزاندر بن ميمالوس، صفى الآلهة وهبة الأولمب. وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس، الذى أثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس، يفاوضون فى الصلح من قبل أجاممنون، أما الجيش الخامس فقد عقدت رأيته لابن ليرسين، الكميدون العظيم، أخى الغمرات وصاحب الثارات.

أما بتروكلوس! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل، يجرها جواده الأشهبان اكسانوس وبليوس أعز خيل زفيروس وأحب دوابه إليه. ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروح فى النفوس : فهذه خوذة أخيل تتألق فوق هامته، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركانا يقذف الحم. وهذى دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين، كأنها لبد نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء بروقيه.

وتقدم أخيل فصافحه. ومنحه شرف القيادة العامة، وخطب الجنود فقال :

«ايه أيها الميرميدون! هذا يومكم.

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلت الجبال وخرقت الأرض، ولقد كنتم تعذلوننى فتقسون على فى أنى احتجزتكم هنا ووقفت فى سبيلكم دون نصره إخوانكم، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وانقذوا أجاممنون مما حاق به، ولا يجرمنكم شنآنه إلا تغيثوه، أغيثوه فنصره عز لكم، شد الإله أزركم، وباركت الأرباب أسيافكم، وأحيت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه، سيروا على بركة زيوس، وفى حمى حيرا، وعين مينرفا تكلؤكم».

وانطل الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم. ورجف الوادى
رجفة أجفل منها السهل والجبل، إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على
شئ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة^(١) ولا يعوقهم جرف. وتسجد من
دونهم حزون الأرض وأكامها.

وانتظم خميسهم^(٢). فبرز القلب تتبعه الميمنة، تلتقاءها الميسرة،
وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين.

ونفخ فى البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين.
فبدلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت.. وانطفأ فى أبصارهم
بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة، ونظروا فراوا تلك الخوذة
المذهبة التى طال عهدهم بها، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها.
خوذة أخيل التى كانت تكفى وحدها لالقاء الرعب فى قلوب
الطرواديين. وقذف الوجل فى نفس كل منازل أو مناجز.

وتصايح بعضهم ببعض : «ياللهول يا صاح! لقد أقبل أخيل! النجاء
النجاء! أين كان الطاغية؟..» ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضا : «أيها
الطرواديون. خذوا حذرکم، الفرار الفرار من الداهية الجبار! لقد قطع
الميرميدون رجعتنا؟ دعوا الهيلانيين وانشدوا خلاصکم، إلى البوابة
العظمى. أيها المقاتلون! لا تزحموا الجسر القهقرى القهقرى..»

إلى آخر هذه النداءات المنزعجة الواجفة..

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكلوس؟

لقد كان اكسانوس ويليوس - الجوادان الكريمان - زوبعتين
مغضبتين، تثيران الدهج وتعقدان العجاجة، فى جميع أنحاء الميدان:
فى القلب، فى الميسرة، فى الميمنة، فى الجناح الأيسر، فى الجناح
الأيمن. بل.. فى السماء!

(١) أرض لابة أى كثيرة الحجارة والنؤى.

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق: الميمنة والميسرة،
والجناحان، والقلب - فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الإغريق؟

وكانت الشمس، شمس طروادة الملتهبة، تعكس أضواءها على
خوذة أخيل، فتذيب أفئدة الطرواديين!

واختلط نظام القوم، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر
الكبير، الذى نصبوه فوق الخندق حول اليوم. ولم يحتملهم، فهوى
بالألوف فى جوف الخندق، ولكن المؤخرة، وكانت غالبية الجيش، لم
تنقبه لما حل بأكثر المقدمة، وكذلك تدافعت لا تلوى على شىء، فجعلت
من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى طروادة.

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها، ثم جال
بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك، يبحث عن أصحاب النداءات
المتكررة التى كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين، منذ لحظات، فلقى
منهم برتوس قصرعه، ثم نستور فجندله، ثم أريالوس فأرسل به إلى
الجحيم، وعشرات غيرهم من بنى طروادة النجب.

وكانت أعز أمانيه أن يلقي هكتور، فسعى إليه وضيق الحصار عليه،
وأرسل إليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته، ولكن، يا لهكتور!
لق ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس، فألهب جياده
الضاريات فعدت به وانقذته من قتلة محققة وموت مبین.

ولشدة ما شده بتروكلوس إذ رأى إلى جانبه فتى هيلاس،
ومحاربها الصنديد أجاكس، يقود فلول الهيلانيين ويقتحم بهم الحلبة
مرة أخرى؟! غير مبال بجروحه التى يتدفق من أفواهاها الدم صيبا.

وكم كان سرور الهيلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة
هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأنجاد يزودون عنهم، ويردون عادية
الموت والقتل والغرق عن جموعهم!!!

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون، وساربيدون^(١)

(١) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه السطور .. لايراد ملاحاة ساربيدون وبتروكلوس وهى
من أروع صور الایاظة (الكتاب السادس عشر).

البطل الطروادى الكبير، أدت إلى مبارزة دامية، وانتهت إلى فجيعة
طروادة فى أشجع فتيانها بعد هكتور! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته
غصة الردى، وأوردته موارد الحمام!
وانكشفت غمة الهيلانيين.

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر، ودفعوه غاليا
وعزيزا. يا للهول!

لقد قتل بتروكلوس!

فمن لك بعده يا أخيل؟

مقتسل بتروكلوس

قتل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها،
وأشجع مقاتل في جيش طروادة بعد هكتور،
ووقف بتروكلوس على جثته يصلّيها سخرية
وهزوا، ناسيا أنه يهزا بابن زيوس سيد الآلهة،
من أثر زوجاته إليه، أوروبا الجميلة المفتان،
التي وقفت من ذروة جبل ايدا تنظر المعركة
الحمراء، وتشهد مقتل ابنها.. وتبكي!

وتثور ثائرة الأم التعسة، وتهيب بالإله
الأكبر أن يحمي جثة ولدها بعد إذ عجز عن
حمايته حيا وبعد إذ عجز عن دفع ما قضت به
ربات القدر.

وينظر زيوس فيرى إلى بتروكلوس واطئا
بقدمه صدر ساربيدون عادة الجاهلية، ويسمع
إليه ويقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء،
غير راث لهذه الروح التي تفيض، أو معتبر
جلال الموت الذي تخشع أمامه القلوب، فيثور
الإله، ويحنق على بتروكلوس، ويأمر ولده من
لاتونا.. أبوللو العظيم.. فينطلق من فوره إلى
معمعان الحرب، ويرسل إلهي النوم والموت
فيحميان جثمان القتيل، ويدفعان عنه سباع
الميرميدون التي تكاثرت حوله تريد لو تسبى

سلاحه ، وتستتقذ دروعه.

أما الجثة، فيحملها الإلهان الكريمان إلى ليسيا، وهناك، يخلطان بها حنوط الخلود، ويلفانها فى ثوب سماوى من ثياب الرحمة، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع الحانها، وأشجى ما تكن موسيقاها.

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة، بعد ساربيدون، لقمة سائغة، وغنيمة باردة، فيهتف بالإغريق مرة، وبالميرميدون مرة أخرى، أن يقاحموا نحو أسوارها، وأن ينتهزوا فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة.

ولا تدرى كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التى غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذى قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم، ليس هو أخيل العظيم، وإن يكن يحمل خوذته، ويتقنع فى دروعه، ويذرع الساحة بعربته.. فتهدأ أعصابهم، ويثبت جأشهم، ويأخذون فى مناهضة الميرميدون والإغريق جميعا.

ولكن بتروكلوس يهجم غير هياب، ويجندل من حوله الأبطال المذاويد، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين، ونفس مذهب بها، وقلب حيران متصدع.

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمى طروادة الخالدة.

ذلك أن بتروكلوس كان كلما بلغها.. وجده وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لا يدرون سرها ولا يعرفون من أين تأتيهم فتخطفهم، وترد جحافلهم، وهى قاب قوسين من داخل المدينة.. أو أدنى!

وفى الهجمة الثالثة، سمع بتروكلوس إلى صوت يقول:

بتروكلوس ! ليس على يدك تفتح هذه المدينة الخالدة! بل هى لن تفتح على أخيل العظيم الذى هو أقوى منك، ومن عشرة من أمثالك! عد من حيث جئت، واحذر، أن تكون آخرتك اليوم، فى هذا الميدان المضرج بدماء ضحاياك.

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إله الشمس، أبوللو، أبوللو بعينه، رب طروادة العظيم، واقفا فوق برجها الباذخ يقلب قوسه فى يديه الجبارتين، مرسلا فى عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين. نظرات تقدح الشرر، وتورى نيران الكيد والجبروت!

واقشعر جسم بتروكلوس، وأيقن أن أبوللو هو الذى رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمة، وأنه أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الإغريق، وضد بتروكلوس قبل كل شىء!

ولكن بتروكلوس محارب، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن، ولا يتلجلج لقصف المنايا فى المعركة، فكيف به يخفق فرقا إذا رأى الآلهة نفسها تحارب فى صفوف الأعداء.

أقبل يا بتروكلوس وأقدم، ولا يهولنك أبوللو، وألف أبوللو، مادام أن العمر واحد، والساعة آتية، ولن يفلت أحد مما قدر له!

وبهت الجمعان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رآوه يرتفع فى الهواء، ثم يتهاذى إلى جهة ليسيا، موطنه الذى يبكى عليه، فعلموا أن السماء تعمل!

وأحس الليسيون هذا الفراغ المفزع الذى خلفه ملكهم المقتول فيهم، فذهب رئيسهم المغوار «جلوكوز» نائب الملك وخير وجوه ليسيا، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمة قريبا من البوابة الكبرى، فوقف تلقاءه محطم القلب، داعم العين، موهون القوى، وقال: يقف هنا بطل طروادة العظيم، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل اليوم، ويسيلون نفوسهم على ظبى الرقاق البيض التى يرهفها فى وجوههم أعداؤكم! ولأى شىء؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الذكية؟ هكتور، لقد قتل ساربيدون فهل علمت! هل علمت هذه النفوس التى يمضها الأسى، والعيون التى تقرحها الدموع، ويعصف بها الدم؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك المرميدون بنا ما رأيت. هل فكرت فى

حماية مولانا الملك، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز؟ لقد سبوا دروعه وسلاحه، فأى عار يصمنا فى طويل الأحقاب والأباد؟ يا لثأرنا..
يا لثأرنا !.. »

ولم ينبس هكتور!

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطرواديين، فينالون منهم ويمزقون صفوفهم، وشاهد البطل الإغريقى المشهور إيجيوس، يصول بين الجيشين ويجول، ويجندل الأبطال ويبيد لهاميم الرجال فأخذ هكتور حجرا كبيرا وانتهز غرة من ايجيوس، وقذف بالحجر فوق رأسه، فشجه، وبرز المخ، وتدفق الدم، وتردى البطل فوق الحدود حتى استقر فى بسيط الساحة!

واستشاط بتروكلوس غضبا وود لو كان قريبا من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم! ولكنه لم يستطع إلا أن يثار للقتيل بمثل ما صنع هكتور، فقد تناول جلمودا كبيرا، وقذف به ستينلاس الهائل، أشجع شجعان طروادة الأحياء، فأطاح جمجمته، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله، بين عجب الطرواديين وشدة تحيرهم.

ولكن جلوكوز - رئيس الليسيين - يرى ذلك فيتسخط، وينقض على البطل الهيلانى الكبير باثيسلين، فيشكه برمحه شكة تذهب به وتتركه يتسخط فى دمه. وتستمر المعركة.



أما أبوللو ، فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذى استولى عليه، وذلك الموقف الجبان الذى يحول بينه وبين الميدان، وفى الحق، لقد كان هكتور ينظر إلى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر، بل وقر فى قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلطتهم المقادير على الطرواديين يسومونهم الخسف وسوء العذاب.

وتتكر أبوللو، فبدا فى زى محارب فى عتفوان الشباب، ثم أجرى فى عروقه من دماء بنى الموتى، وغضن قليلا من جبينه، وسوى من ساعديه، ونثر فوق عدنه من ثرى المعمة، ولوح وجهه بلامح (أسيوس) العظيم، أخى هكيويا، وخال هكتور، وسار قدما إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور بروح الساحة الهوجاء.

«هكتور! فيم أحجامك عن لقاء الأعداء يا بنى؟ هلم. هلم! فوأرباب الأولمب لو كان لى شبابك وعتفوانك، لصاوت هؤلاء الميرميدون الألداء، ولأخلت منهم تلك الحومة التى ملأتك هلعاً. أقدم ياهكتور ولا تحجم هكذا. ألق بتروكلوس فقد تصرعه، وإنك لصارعه، وإنك لعاقد أكليلا من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر، وحسبك أن أبوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك. ومضاعف بتأييده ضرباتك! هلم، وعش عزيزا يا هكتور، أو مت كريما يا بنى، بين طعن القنا وخفق البنود!».

وانفتل أبوللو فانخرط فى صفوف المقاتلين، وطفق يصرع أبطال الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور، وليشخذ من همته الخابية، وليوقظ شبابه النائم.

فلما رأى هكتور جلائل هذه الفعال التى أبداها خاله - وما هو بخاله - انكشفت عن هذه الغمة التى غمرته. وأمر سبريونيس، سائق عربته أن ينطلق به إلى الحومة. فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس. حتى إذا كان على مقربة من شبة رمحه، ترك صاحبه وجهها لوجه معه. وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة، فأخذ يناوش بتروكلوس، هو الآخر فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشم رأسه، وصدع فقاره، وطار بروحه إلى هيدن.

واقشعر هكتور من هول الضربة، وعز عليه أن يؤدى سبريونيس وهو بين يدى موله، فلا يجد له حاميا، ولكن الطرواديين تككبوا حول القتيل، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بعدته،

ليحتفظوا بها أثرا حربيا خالدا.

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق، وصخب زوبعة القتال فوقه واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما، فكان جماعة يشدون القتل من قدميه، بينما جماعة أخرى تشده من الرأس، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب، ويلطخونه بالدم!

ووجد أبوللو، فرصته!

أبوللو الخائن، أبوللو سيد الشمس الذي لا يستحي! أبوللو الإله الذي يفرق أن يلقي ببتروكلوس وجها لوجه. فيأتيه من الظهر. كأجن الجبناء!

يالآلهة! ومسكين يا ببتروكلوس!

لقد تقدم أبوللو. مستجمعا كل قوته في قبضة يمينه الجبارة فأهوى على قفا ببتروكلوس بضربة خائنة كضربات اللصوص.. حين ينسلون تحت أستار الليل. فأطار صواب البطل. وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة. وغودر الرأس العظيم مكشوبا في متناول كل ظبة وكل سنان.

ولم يدع هكتور فرصته تمضي، بل سرعان ما أبصر ببتروكلوس يتلفت ليرى صافعه. حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر إلى الرأس العاري فأقصده.

وسقط ببتروكلوس المسكين.. مخرجاً بدمه.

ووقف هكتور يتشدد، ويفخر تلك المفارقة الكاذبة:

بتروكلوس. رأييت؟ لقد انتهيت. ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أبديدا! ببتروكلوس. أكنت تحلم بأن تفتح طروادة عليك. فتسوق بيض خدورها إماء بين يديك إلى بلادك. وتقرن في الأصفاد أبطالها البهاليل؟ أيها التعس. لقد ترديت من عربة أخيل التي لم تكن يوما أهلا لها. وبعد قليل تنوشك سباع الطير وتغادرك فوق ثرى طروادة جيفة منتنة تنوشها السباع.

بتروكلوس : يا أتعس قتيل فى هذه الساحة الحمراء.

كم كنت تمنى نفسك بقتل هكتور.

وكم كنت تمنى نفسك لو كان هكتور قاتلك وسافح دمك، هو الذى ينام تلك النومة الساعة بين يديك!

وكم كنت تمنى نفسك أن لو عدت بعدة هكتور وعتاده إلى مولاك أخيل الذى أرسلك إلى الحومة، ولم يجازف بنفسه فيها، وهو يعلم أن أسدها الهصور لابد قاتله، فافتدى نفسه بك، وضحاك فى سبيل خلاصه، من هذه الصرعة التى زلزلتك!

بتروكلوس!

أهكذا قد غرر بك أخيل، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك، وتسبح فى دمك، وتغص بالأمك، وإنه ليسبح الآن فى شهواته ويقارف لذاته، ولا يدرى مصيرك المحزن، ولا يعرف ما حل بك من موت زؤام!

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه، ويسمع إلى هذا الهذر، ويبكى! فلما انتهى هكتور تأوه القتل آهة عميقة، ثم قال:

هكتور!

حق لك أن تفتخر الآن!

أما قبل هذه اللحظة فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده، لأنه طاش من شدة ضربات الميرميدون!

على أنك لو كنت رجلاً، لأثرت أن تدفن وجهك فى الرغام، دون أن تفخر بنصر ليس لك فى أقله يدان!

لست أنت الذى رميت يا هكتور، بل هو سيد الأولمب، وولده أبوللو، هما اللذان رميا، وهما اللذان كتبوا هذا القضاء. وأبرما هذا القدر.

وإلا ، فوأرباب هيلاس، لو صاولت عشرين كلباً مثلك، لما أفلت منهم أحد أبداً، ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى فى نار جهنم!

أجلى هو الذى أعجلنى يا هكتور، أبوللو هو الذى فتك بى تلك الفتكة
البكر، أما أنت، فلم تصنع شيئا، أكثر من أن رميت رمية الجبان!
على أنى أقولها لك قولة غير كاذبة.

إنك ستشرب بالكأس التى شرب بها بتروكلوس، ولن تبسم لك
الدنيا أكثر مما فعلت، فانتظر، فسيأتيك عذاب يشقيك، سينتفض أخيل
العظيم حين ينتهى إليه نبا مصرعى، فيهرع إلى هذه الساحة، والويل
لك من رمحه الظامىء إلى دمك!

وكانت هذه المقالة قد أجهدته، فسكت قليلا، ثم أغمض عينه
إغماضة متعبة، وفتحهما فجأة، ونظر إلى جنوده، وقال:

ميرميدون!

وداعا .. سلامى .. إلى أخيل!

وفاض الروح الكبير، وسكنت الساحة الحزينة كلها، كأنها تبكى!
وكانما هزت كلمات بتروكلوس فؤاد هكتور، وكانما خشع بطل
طروادة لجلال الموت، فصمت طويلا.. وقال مخاطبا، والقتيل:
« بتروكلوس ! »

« ومن يدري إذا كان أخيل هو الذى يقتلنى، أو كنت أنا الذى أقتل
أخيل ! »

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل، ولم يتورع كذلك
أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل.

تذكارا حربيا !

وعتادا مؤقتا !

أخيل يبكي بتروكلوس

قتل بتروكلوس .

وانقلب هذا النصر المؤزر إلى ذهول
استولى على أفئدة الميرميدون، صيرته الصدمة
الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة!

وبينما كانت أبصارهم زائفة تنظر إلى
ما حل بمولاهم، وبينما كانوا ينظرون إلى
أشباح المنايا ترف فوق الساحة، وتدوم على
رءوسهم، تكاد تخطفهم، كان هكتور وملؤه
ينزعون عدة أخيل، دون أن يلقوا أقل معارضة!

ثم أفاق الميرميدون على صيحة من منلوس
العظيم الذي اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدما.
وناضل وحده عن الجثمان العزيز، الذي كان
هكتور يمنى نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله
معرضا هنالك، يشهد له بالشجاعة المغتصبة،
والجسارة المزورة، والبطولة التي لم يكن لها
بأهل، ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير،
وتغتذى بلحمه المر سباع طروادة وكلابها!

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع
منلوس، ولكنه انقضاض المهموم المحزون،
وهجمة المرزا المكدود، فلم تكن ضرباتهم

الواهية تخيف الطرواديين بعد أن أنقذوا من بتروكلوس الداهية، ولم تكن صيحاتهم الواهية تهز بضعة فى قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم.

واستطاع منلوس، بعد لأى شديد وجهد، أن يحمل الجثة، يساعده مريونيس الكبير، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية، يحمى ظهورهما أجاكس وجنوده.

وذعر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم، والرتاء لما حل بهم من بعده، والفرع الأكبر للقاء أخيل.. لا يتقدمهم إليه قائدهم..

ولجأ منلوس إلى الحيلة، وفكر من فوره فى إثارة النخوة فى قلب أخيل، عسى أن يقدم فيقود أجناده، ويتم النصر للهيلينيين، فأرسل إليه انتيلوخوس يحمل النبأ العظيم، ويزلزل من تحتة الأرض حين يقص عليه ما لفظ به هكتور.

ولو علم انتيلوخوس ما يثيره هذا النعى فى قلب أخيل ما أثر أن ينفذ إليه به! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر، وماد الشاطئ، وتجاوبت لها جنبات الجبال، ثم بكى فأربد أديم السماء واعتكر واحتلك الضحى وبسر، وشاعت فى العالم ظلمة أشد من ظلمة القبور!

« بتروكلوس ! .. »

أفى الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت! واحربا! إذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمنى، وما تفتح عينيك لترى أخيل؟! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس، حتى ولا بحبى؟!!

إلى حتفك كنت تستأذنى..

ويلى عليك يا أعز الأحباب.

ويلى عليك يا بتروكلوس! ويلى عليك يا أعز الأحباب..

ولم ينطق، فطفق يحثو التراب على رأسه، ويشد شعره.. فيكاد ينزعه، ويرسل فى السماء وفى الأرض والبحر صرخاته المدويات.

وانتفض الموج، وفار الماء، وكأنما اتصل أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد، واصطخب بما يؤوده من كمد، شاعت فيه أشجانه وأحزانه، حتى وصلت إلى الأعماق.. حيث تأوى ذيتيس إلى زوجها، رب البحار السفلية، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها فى أسطوله الراسى على هامش طروادة، وأحس بما يأخذه من ألم، ويمزق حشاه من عناء، فصرخت ثمة صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر، وعذارى الماء، من حوريات نريوس^(١) وأخذن يلطن خدودهن الوردية تحت الثبج، ويذرين من نرجس عيونهن فيضا من الدمع الدرى، ثم انتظمن صفوفًا صفوفًا، ورحن يتهادين وراء ذيتيس، مرسلات فى الأعماق أناشيد الحزن، طاويات ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكة مولاهن، وبين شطآن اليوم، حتى إذا كن عند الأسطول الهيلانى طفون فوق الماء، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة، وارتد البحر بسربهن فرودس نعيم!

وبرزت ذيتيس فرقت سفينة ابنها أخيل الباكي الآن الحزين، وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون، وجعلت تهون عليه أمر صاحبه وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفاق أشد الفرق، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة كما أنبأتها بها ساحرات الماء.. وأن أخيل أنه شديدة، وقال لأمه:

« أماه ! هكذا قدر لنا أن تلقى ما حتمه القضاء علينا، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال، ولكن خبرينى بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها، ومادام أعز أحبابى

(١) النيربيد ممن بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهن طائفة كبيرة.

وأودائي ملقى فوق هذه الساحة الفكراء. ذبيحا بين أشقى الخصوم
الألداء!

آه يا بتروكلوس! لقي شفى هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادرا
وحين انتزع عدتك غادرا، وحين يفخر بكل أولئك غادرا!

وهذه العدة يا أماه! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الإله إلى بليوس،
أبى، رب الأعماق، وهدية من أبى إلى!! أبدا لن أعود معك إلى حيث العار
الأبدى ينتظرني، ما لم أثار لأوفى أحبائي بتروكلوس، من هذا النذل،
هكتور، وما لم أرو هذه الصعدة الصامتة من دمه النجس، وأقذف فى
وجهه بمفاخرته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم.

لا . لا . لا تتحدثى إلى عن أوبة تصمنا بالنذل إلى الأبد يا أماه، وإنى
لأقسم بالسماء ومن فوقها، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى
صدر هكتور!

وصمتت ذيتيس قليلا، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها
من ذلك القضاء المحتوم. فأخبرته بما تحدثت به العرافات يوم ولد،
وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة، والفجيعة التى لا تكون مثلها
فجيعة.

ولكن أخيل يبتسم ابتسامة محزونة، ويتحدث إلى أمه عن المجد
الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر: « واستبشار الهيلانيين بعودتى
لمناصرتهم، ووضوح الحق وجلاته لأجاممنون، إننى روح الجيش
وحماسة الجند، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين! صه يا أماه! فلن
تزعجنى مخاوفك، ولن تلقى فى روعى أقل الجزع.. لأنه إن كان حقا
ما تحدثن إليك به، فأين يهرب أحدنا من القضاء!!؟ ».

وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها، ولما أيقنت ألا سبيل لها إلى قلبه
الجرىء، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود إليه من
عند فلكان، الإله الحداد، الذى ستذهب هى إليه تكلفه بعمل دروع
وخوذة تحملها إليه، ليحمياه فى يوم الروع! وعاهدها أخيل.

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانتثين إلى مملكة بليوس، يحملن إليه أنباء ولده. أما هي، فانطلقت إلى فلكان.. هناك.. هناك فوق ذروة جبل اطنة، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم يصنع الدروع.

ولقيها الإله الحداد بالترحاب، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها، ولم يفكر أن يصنع مثلها حتى للآلهة!.. وكيف لا، وأخيل الحبيب سيدرع بها فتحميه من أوشاب الطرواديين، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس، الذى تعلمين مما كان من أمره مع فينوس ما تعلمين.. لقد فضجنى السافل فضحته المقادير...^(١).

ولكن الساحة كانت تضطرب وجموع الطرواديين تأخذ الهيلانيين من كل فج، وكانت حيرا، مليكة الأولمب، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصرع وتقتيل، وكانت مينرفا كذلك تهلع عليهم هلعا شديدا.

وتشاورت الربتان، واتفقتا على أن تنفذا ايرليس إلى أخيل، تأمرانه بخوض الكريهة فى جانب الهيلانيين، ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول إلى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة.

بيد أن حيرا أشارت على مينرفا أن تنفذ الرسول إلى أخيل يحمل إليه درعها، وكان لمينرفا درع اسمها ايجيس لم يصنع مثلها لأحد من قبل فلكان، وأن ينهى إليه أنهما تأمرانه بالتوجه إلى الساحة فيطلع عليها ليراه الطرواديون، فإنه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار!

وانطلق ايرليس برسالته إلى أخيل، فاهتز البطل من نشوة الطرب، وشاعت الكبرياء فى أعطافه لأنه سينال شرفا لم ينله أحد من قبل، وذلك بأنه سيدرع بقميص مينرفا، المسرودة من حديد!

وعندما نهض ليلبس الدرع رأى مينرفا نفسها تساعد بيديها

(١) نشرنا هذه الاسطورة التى يقصدها هوميروس فى كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق فليرجع إليها القارئ ثمة.

الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلاً وضاء من الذهب
ثم تقوده إلى الساحة!

وهناك وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة
كلها، ثم أرسل إلى الآفاق صيحة مدوية، كانت تنفخ فيها مينرفا
فتزيدها قوة وعنقوانا، فزلزلت قلوب الطرواديين وجعلتها تدق في
صدور ذويها كالنواقيس!

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل، وما كادوا ينظرون
إلى هذه الآراء المنتشرة فوق رأسه، والأضواء المتلألئة من أكليله، حتى
سقط في أيديهم، وارتعدت فرائصهم، وولوا على أعقابهم مدبرين! وكانت
خيولهم المذعورة تولى هي الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك، وتسقط في
الخنادق المحيطة بطروادة، فتلقى فيها حتفها بمن عليها!
وتوارت الشمس بالحجاب.

فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب.

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنلوس وزميله في الإسراع بجثة
بتروكلوس إلى مؤخرة الجيش، حيث الأمان والاطمئنان، فلما عاد أخيل
كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه.. فبكى.. وبكى.. واجتمع
الميرميدون يبكون.

ثم رثاه بكلمة دامعة، ترجمت عن نفس مكلومة، وأمر فأوقدت نار
كبيرة وضع عليها دست ماء كبير، وأخذوا جميعاً في غسل الجثة
المعفرة بالتراب، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار
والقرنفل، ولفوها في مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض.



واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون في هدأة الليل فخطب
بعضهم^(١) ناصحاً بوجوب التحرز داخل الأسوار في غد، مخافة أن

(١) بوليдамاس .

يبطش بهم أخيل وشياطينه، لاسيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب
جرحها مصرع بتروكلوس وهم لابد ثائرون له، مهما كلفهم الثأر له
من أرواح ودماء!

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم، كأن قتله بتروكلوس غيلة قد
خدعه عن شجاعة أخيل، وما قدر له مما سيلقاه من بطش أخيل.. وهل
غد بعيد؟

وفى هذه اللحظة أيضا، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذى
أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الإله أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أدل
له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء.

وكانت حيرا تسمع إليه وهى تطفر فرحا! كيف لا ؟ وهذا أخيل
يعود إلى أعدائها فى الغد، فيصليهم عذابا، ويجرعهم غصصا مذاقوا
مذ ترك الحلبة أمثالها؟! ولتحرزن فينوس! وليحل غضب السماء على
باريس، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم.

وأشرقت شمس الغد.

ولاحت زيتيس تنهذى فوق الزبد فى الأفق الغربى، تحمل الدرع
التي لم يصنع مثلها فلكان.

حتى ولا للآلهة أنفسهم! والويل لك يا هكتور!

صلح

أشرقت الشمس أو كادت، وبدت زيتيس
تتهادى فى الأفق الغربى فوق الشج، وهرعت
عرائس الماء وعذارى البحر تحيىها وتنشد لها
ألحان الفجر، ظلها الندى..

وكانت تتأود تحت حملها الثقيل، فما أن
بلغت سفينة أخيل حتى القت بالدرع المسرودة،
وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى، ومهجة
حرى، وقلب موجد حزين.

وكان لا يزال جالسا أمام جثة بتروكلوس
يبكيها، ويكلم فيها الإخاء والوفاء، ويناجى فى
لفائفها الود والولاء، وكان ما يزداد إلا لسوعة،
وكان ما يزداد إلا أنينا!

وحننت عليه أمه تواسيه، ثم لفتته إلى الدرع
والخوذة، فحدجها بنظرة قانعة.. وشكر لها
هدية فلكان، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى
به الصديق.. «ذودى الذباب فلا يمسخها يا أماء،
وادفعى عنها أسرابه، واسقيها من المعتقة
الصفراء، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى
بتروكلوس بثأره..»

وانطلق فى غبشة الصبح يطوف بمعسكر

الهيلانيين، داعيا إلى مجلس حربي.

وكان يهتف بالجند النائم هتافا عاليا، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم، واهتزت جوانحهم، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل!

وكان أجمل ذلك جميعا أن ينهض أوليسيز متهالكا على نفسه وديوميد مترنحا في عطفه، ونسطور مرتجفا كأنه في يوم حشر.. و.. أجاممنون كأن الحياء والخجل يصبغانه حمرة الجحيم!

لقد كانت جروح القادة انطق برهان على ما جرت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش، وضياح للجهود وعبت بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار!

وانتظم عقد القادة، ووقف أخيل يتكلم، فأرهفت الأذان، وأصغت القلوب، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه:

«ابن أتريوس العظيم»!

«أخي في الوطن»!

«يا أمير هذه الجيوش الغازية»!

أرايت؟! أي جدوى عادت على أو عليك من هذه القطيعة التي أججت نارها، واندلع بيني وبينك أوراها، وأي غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم ابن عظيم، بل سليل آلهة عظماء؟!!

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التي أثارت كل تلك العداوة، أغرت جميع تلك البغضاء بيننا! أي وأرباب الأولمب، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر، وما حاق بجاحقنا من خذلان، لم يكن شيء منه يقع لولا ما أثارتته بريسيز بيننا!

ولكن لا! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى، ولكننا معشر الهيلانيين، ينبغي أن نذكر أبدا أن لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم..

لنكبح جماح أنفسنا اذن! وليطفىء كل منا غيظه فى سبيل هيلاس،
ولتندمل تلك الجراح التى تنكأ قلوبنا فتكاد تقضى على آمال أمة،
وتطيح بأمانى وطن!

أجاممنون! ابن أتريوس العظيم!

تلك يدى أضعها فى يدك، عهدا مخفورا وذمة وفية، ألا ندع أهواءنا
تهدم ما صبت إليه نفوسنا من قبل، وأن نكون من الساعة يدا على
عدونا، وإلبا واحدا.

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا، أو يجازف
بنفسه أمامنا.. هذا رمحى وتلك قناتى! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء...!
وتدفقت الدماء فى عروق القادة، وشعروا كأن السماء ترفعهم إليها
فتطهرهم وتزكيهم، وتعود بهم لترى قوما آخرين!

ونهب أجاممنون من مكانه، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان
الخطابة، فقال: «أيها الأصدقاء! يا أبطال هيلاس! يا وزراء مارس!

لست أدري ما أقول ردا على أخيل العظيم، بيد أننى سأفتح له قلبى،
وأكشف لكم أمامه عن سريرتى، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل!

أبدا والله ما كنت سبب هذه المأساة التى أغرت بيننا العداوة،
وأججت نيران هذه البغضاء! وأبدا والله ما أثرت أن يكون بيننا، ونحن
فى هذا الأمر ما نحن، شىء من تلك القطيعة التى دفعنا ثمنها غاليا:
أرواحا مطهرة، ودما ذكيا، وشبابا أنصر الشباب!

أبدا والله ما أثرت من ذلك شىء قط، ولكنها المقادير، ومشية سيد
الأولمب، وهذه الربيات الغالبات، «أرينيس»^(١) اللاتى تحالفن على
فغشين بصيرتى، فأذهلننى عن نفسى، فأتيت على غير وعى منى،
ولا هدى ولا برهان مبين!

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيدن) فى هيئة السحلاة، ولهن مكان الشعر
نعاين تتلوى فوق رؤوسهن يمزقن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب.

ولقد تاب إلى رشدى، ارتفع الحجاب عن بصيرتى، ساعة إذ
أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر، كأشد
ما يكون حصار بين موتين! عندها، ذكرت أخيل، وذكرت أننى آثم فى
حق أخيل، وأن أخيل لو كان فى هذه الحلبة لما ملك هكتور رشده،
وما ملكت رجلاه أن تحملاه! فزاغت عيناى، واستبنت ضلالتى،
واستغفرت الآلهة من أجل آثامى!

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك، وسعيت إلى خصمك، ومددت إلى
يمينك من أجل الوطن! مرحبا بك يا أخى؟ ومرحبا بصلح يغسل
الضغن، ويذهب بالجفوة، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعا!
على أنى أرى أن أمهر صلحى وأؤكد محبتي، باللهى الغالية،
والهدايا العالية، وبكل مذكور ثمين، فهل يا ابن بليوس هلم، هب
الصفوف وجيش الفرق، حتى أعود إليك بتذكاراتى..

وأبى أخيل أن يلهو أحد فى تلك الساعة، أو يشتغل إلا بالحرب.
والاستعداد ليوم الفصل، فشكر أجاممنون، ورجاه أن يلبث معه حتى
يأخذ كل عدته، ولكن أوليسيز الجريح يتدخل، ويرجو أن ينطلق
أجاممنون ويأتى بالعطايا واللهى.. وبالغادة المفتان، بريسيز فتنة الفن،
ونادرة الجمال، نقية كما هى، أخيلية كما فصلت من خدر مولاها يوم
الخصام الأكبر، «وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكد
أجاممنون».

ويقسم عليه ويؤكد أجاممنون، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ثم
يأمر خادمه «تلثبيوس» فينطلق إلى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه
ويطعم القادة منه.. ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر
صديقه وأعز الناس عليه : بتروكوس!

ويلح عيه أوليسيز فى أن يأكل : «لأن الحرب شاقة، ويومها دهر
بأكمله، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان، فما يزيد أخيل إلا اباء.

وعاد أجاممنون.

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل.. ونهض أجاممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس، ورضاء الضمير، ثم قدم الهدايا إلى ابن بليوس الذى كان يشهدها ويبكى!

وفى الحق، لقد كانت لهى أحسن اللهى، وهدايا على قدر مهديها.
فهذه صناديق سبعة مقفلة، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما علت قيمته من كتان مصر، وخز الهند، وحبر الشام.
وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة واحدة، ولونتها الآلهة بألوان واحدة، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها، فكانت كخيل يوربا!

وهذه عشرون دستا من النحاس المزركش، حليت سطوحها بالميناء والفسيفساء، وتبارت فى حفرها كل يد صناع وفكر عتيد، وفيها من أصناف الجواهر ما يبهر اللب ويشده القلب، ويذهب سنا برقه بالأبصار!

وهذه بدر عشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز ويتقدم بها أبكارا سبعا من جملة اللهى كل منهن كأنها فينوس حقيقية، تميز كأنها بانة، وتبتسم كأنها أقحوانة، وتبدي عن الدر النضيد!!
ثم...

هذه بريسيز! بريسيز الهيفاء، وأصل هذا البلاء، الدمية التى أترعت بالمفاتن، وضافت عيناها بسحر الهوى!

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار، وتتقدم فتثب القلوب، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر، وشبابها الفينان!

فهل رأيت العاصفة تقتلع الدوح، وتطيح بالأيك، وتهب على اليم

النائم فيصطخب، والبحر الوداع فيضطرب.. و.. على الغدير ذى الخريز
فيرقص من رعشة، وكأن به مسا من الخدر!!

تلك هى بريسيز حين تبدت للقوم!

لقد هتف أوليسيز هتفة ضاعت فى انذهال الملاء بما يرى، على
ما تعرف من جبروت أوليسيز، وشدة ايده.. ثم هتف فتلفت الناس.
وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها، وأخيل مطرق
ساهم، لا يكاد يعي مما قال شيئاً!..

واستل اتريديس خنجره، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه، وهو
فى ذلك كله يصلى لأربابه، ويسبح بحمد السماء، ويشكر لسيد
الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلي الآلهة..

ونفض أجاممنون فقدم بريسيز إلى سيدها، وعقب بكلمة طيبة ثم
أشار أخيل إلى الميرميدون فحملوا الهدايا، وانطلقوا بها إلى أسطولهم،
ومعهم فتاة مولاهم فى صفوف موسيقية، وفى موكب رهيب.

وانصرف القادة إلى زادهم، والجنود إلى ميرتهم، ولا حديث لهم إلا
أخيل وفتاة أخيل، والصلح الذى باركته السماء، وكسبوا منه أن يكون
فيهم أخيل!

أما بريسيز فقد وصلت سفينة مولاها، فشدها أن ترى جثة
بتروكلوس فى لفائفها وأكفانها، وإلى هذه الأم البارة، ذيتيس، جالسة
عندها تبكى، وتدافع أسارب الذباب، وتسقى القتل خمراً!

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب، ولقد تركته ممتلئاً
صحة، موفوراً شباباً، نضير الصبا، ريان الأهاب! ثم عادت فكان أشق
شئ عليها أن تراه مسجى هكذا! لا نائمة ولا حركة ولا نفس! قتيلاً
كأدنى من كان يقتل كل يوم روع، طعينا كأقل من كان يطعن كل يوم
نزال!!

دارت الدنيا بالفتاة، فراحت تملؤها ندبا وبكاء!.. واجتمع لديها

الفتيات الأخريات يندبن ويكبن.

فما كان أروعه منظرا، وما كان أشجاء اخلاصا!



وأقبل فونيكس على أخيه يواسيه.

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع، وما ينقطع له نحيب..

واطلع أرباب الأولمب، فشهدوا ما يأخذ البطل من رحضاء الحزن،
وبرحاء الأسى، فأشار زيوس إلى مينرفا، فهبت إلى أخيل ترعاه،
وتخفف عنه بلواه، فلما كانت قاب قوسين من ابن بليوس، هالها أن
تراه يعصف به الحزن، ويوهنه الجزع، والجند مع ذاك قد بوثوا
مواقف للقتال! فما هي إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة
على صدر صديقه لينقذه من ضيقه، وليخفف عنه وطأة الجوع.
ويصدع فونيكس فيتقدم إلى أخيل كاشفا عن صدره، ويصب السلافة
الأولمبية فيشربها الجسم الضاوي، ويسترجع بها ما فقد من قوة..
وما يفتأ يصب الخمر، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوها، حتى يكون
في كل قوته من أثر المدامة، فيصيح صيحة الحرب. التي تهتز لها
أبراج طروادة!

فانظر إليه مقنعا في حديد فلكان، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التي
لم تصنع مثلها يد الإله الحداد، وانظر إليه يداعب حرب شيرون،
استأذه السنتور العظيم، ثم أنظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار
من عينيه المغضبيتين، ومن حوله الميرميدون يملئون الرحب ويسدون
الشعب..

ويل لك يا هكتور!!

فزع الآلهة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب.
وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من
الفريقين يصلى له، ويطلب منه العون، ويتوسل
إليه أن يظفر بعدوه، فتتجاب هذه الغاشية التي
صرعت الرجال، وضرجت أديم الثرى بدماء
الأبطال!

ودعا إليه أربابه فعقد منهم مجلسا
للمشورة، فانتظم ديوان الأولمب، وحفلت بهم
ذروة جبل ايدا، وطفق الإله الأكبر يقلب الرأي
على جميع وجوهه، ويبحث المسألة من شتى
أطرافها، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم
فى وجوه بعض، وتضطرم فى أفئدتهم نيران
العداوة والبغضاء، لأنهم كانوا جميعا وقلوبهم
شتى فهذا فريق منهم يعطف على طروادة،
ويشيد بذكر طروادة بل منهم من اشترك فى
بناء طروادة، واقامة أسوارها وتمكين
صياصيتها، والطرواديون من أجل هذا قد
أخلصوا العبادة لهؤلاء فأقاموا لهم الهياكل
المشييدة، والمعابد المنيفة، وهم فى طويل
الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأخبار
لهم، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم.

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلانى شعبه المخلص، فهو لذلك يحدب عليه، ويرجو له الخير، وهو أبدا يستأذن سيد الأولمب فيحارب فى صفوفهم، ويشد أزهرهم، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق وهم أبدا يتعلقون بهم، ويقيمون المعابد لهم فى كل حنية من جبالهم وبكل منعرج من شعابهم، ومنهم كل مثال صناع اليد، مرهف الحس، رفيع الذوق، وهم لذلك ملأوا المعابد والهيكل بتماثيل الآلهة، حتى ما تقع العين على أجمل منها!

وفريق ثالث لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ينقم على هذه الحرب الشعواء التى سمرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج، وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض، ويرسل عليهم كسفا من السماء، فلا يبقى على أحد منهم أبدا!

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكون فى صفوف الطرواديين يرشدهم، ويدفع عنهم عادية أخيل، ثم يذهب فريق آخر فيكون فى صفوف الهيلانيين يقل من نشاطهم، ويكسر من سورتهم، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالا، وإلى أن يرى الآلهة فى شئون خلقهم رأيا آخر.

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب، ومينرفا ربة الحكمة، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدن، وفلكان الحداد إله النيران، الذى فضحه «مارس» فى زوجه، ونبتيون رب البحار العتيد الذى روع الطرواديين فى هذه الحرب أيما ترويع.

وانطلقت فينوس إلى صفوف الطرواديين، وراح فى أثرها أبوللو وأمه لاتونا وديانا ومارس واكسانثوس، وفئة غير هؤلاء من عشاق فينوس.

وأنبت الآلهة ينفخون فى أبواق الحرب.

وصاح أخيل فى شياطين الميرميدون صيحة مدوية. زادتها مينرفا

قوة، فما تركت فؤادا إلا زلزلته، وما غادرت نفسا إلا تركتها ترجف من خوف وفزع.

وكان أبوللو ينظر إلى أخيل فيتميز من الغيظ، ويود لو يبطش به فى غدره من غدراته التى أودت ببتروكلوس من قبل، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد، وفقاره يندك من الرعب، لما رأى حول أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء، لاسيما هذا الإله الوحش نبتيون الذى كان يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطربان اضطرابا.

وآثر أبوللو أن يستخفى فى زى ليكاون بن بريام وصوره، وأن يذهب من فوره إلى اينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور، فيثيره على أخيل ويلهب فيه نخوة الجاهلية التى سداها التفاخر بالأنساب، ولحمتها التباهل بالأحساب، والتبجح بأنا ابن من سمك السماء، ودحا الأرض، وأنبت فيها من كل زوج بهيج!

واستطاع أبوللو أن يهون على اينياس من شأن أخيل، وأن يحقر فى ناظريه خطبة، واستطاع ببيانه الموسيقى، وطلاقة السحرية أن يدفعه إلى ناحية أخيل، الذى وقف مكانه يقذف الرعب فى قلوب الطرواديين وأحلامهم، باحثا عن غريمه البغيض، هكتور بن بريام، يود لو يخلى بينه فيبطش به ويشفى هذا اللظى الذى يتأجج فى جوانحه، لقتله أعز أصدقائه، وأحب الناس إليه.

ووقف اينياس تلقاء أخيل، فتبسم زعيم الميرميدون، ووعظ المحارب أن ينثنى فلا يلقي حتفه، وذكر بما حدث بينهما قديما، حين ساق أخيل قطعان اينياس السائمة فى سفح جبل ايدا، وما كان من فرار اينياس، هذا الفرار المضحك، الذى أشمت به الأعداء، وأثار عليه سخرية الأصدقاء والأوداء!

ولكن اينياس، الذى كان لا يزال مأخوذا بسحر أبوللو وموسيقاه أبى واستكبر، وهز أعطافه، ثم أخذته العزة بالإثم، وانطلق يقذف فى وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذى لا يجدى فى حلبة الحرب نفعا.

ولا يجر على صاحبه مغنما، يوم لا حكم إلا للمرهب البتار، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار.

والتحم المحاربان العظيمان!

وارتطم الصخر بالصخر، وثار النقع فى الميدان وأظلم حتى تهاوت كواكبه، ونظر الجمعان نظرة القلق الحيران، وأخذ الدهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته، ويقذف برمحه العظيم فترده درع فلكان، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين، ثم فترت، فلم تصل إلى فؤاد أخيل.

وهنا! اشتعلت نيران الدنيا فى عينى زعيم الميرميدون، وذاب فى أعصابه حميم من الغضب، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى، ولكنه لعظم الطعنة، يصصره ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى، وضربات الرقاق البيض.

وينحنى أخيل من عربته الفخمة، فيتناول حجرا عظيما، ينوء به العصبية من صناديد الرجال، ثم يرفع الحجر ليقذف به جمجمة اينياس.. ولكن!..

لا! ينبغى إلا بقتل اينياس، لأنه ابن زيوس سيد الأولمب، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل، وألف ألف جيش من ميرميدون أخيل!

هكذا قدر نبتيون، وقتل نبتيون كيف قدرا!

لقد أرسلها إلى حيرا، مليكة الأولمب، التى كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم، قوله غير صادقة إلا فى زعم نبتيون!

وعارضت حيرا فى تدخل نبتيون، ولكنه، لشدة حبه لأخيل، لم يسعه إلا أن يسرع فينشر أمام ناظريه ضيابة كثيفة حجبت عنهما هدف اينياس، ثم انكفأ يحمله بعيدا عن أخيل، حتى انتهى إلى صفوف الطرواديين الخلفية، فسجاه على العشب الأخضر، وأخذ فى نصحه ألا

يجازف بنفسه أمام أخيل كرة أخرى!!

وكان الجمعان ينظران إلى اينياس محمولا في الهواء.. فيأخذ
العجب منهما كل مأخذ!!



وأمحت الضباب، وبطل السحر، ونظر أخيل فلم يعثر لاينياس على
أثر، وشده أن ينجو خصمه من قتلة محققة، فيلقى في روعه أن
اينياس سليل الآلهة، كما ادعى منذ لحظة، ثم يشده أكثر، تجاوبن
الميرميدون والهيلانيين على السواء بعد إذ رأوا اينياس محمولا في
الهواء!

ويحضهم أخيل على خوض المعركة، ويستطيع بحماساته أن يلهب
في صدورهم روح الاقدام.

ويكون هكتور في هذه اللحظة قائماً في جنوده يحضهم هو الآخر
ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون. ويراه أخيل فيخفق
قلبه، ويعلو صدره ويهبط كأنه الخضم الغاضب. ويدفع عربته نحوه،
فتندفع الخيل، وكأن النيران تندلع من عيونها وأنوفها.

وكان أبولو إلى جانب هكتور، فلم يرض له أن يلقي أخيل الذي
ما خاض المعركة إلا ليثار لصديقه بتروكلوس.

وكاد هكتور ألا يابه بكلام أبولو، وتقدم فعلا ليلقي أخيل، ولكن
الإله الكبير زجره زجرا شديدا، ثم أمره بالتقهقر في الحال.. فانسحب
بطل طروادة، وترك أخيل يحرق الأرم مكانه، إذ أفلته هذا الصيد
الثمين!

وانقض أخيل يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة
فصرع ايفتيون العظيم ابن عذراء البحر، ثم ثنى بالكمي الكبير
ديموليون فشج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه، وبرز المخ، وذهبت
روحه إلى هيدرا! ثم ثلث يبطل الأبطال هبوداماس، شكه شكة فتركه

يخور كخوار الثور، مسوقا إلى مذبح الآلهة.. ثم انقض على بوليدور بن بريام، ملك طروادة قطعنه فى ظهره طعنة صرعته. ونشرت ظلام الموت فى عينيه. فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما، أبكى الجند وأحزن أخيل نفسه..

لقد كان بوليدور أحب صغار بريام إليه، وكان يجرى فيسبق الريح وينازل القروم الصيد، فيصرعهم عشرات ووجدانا، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم!

وكان ظلام الموت الذى خيم على عينى بوليدور امتد حتى ظلت عينى هكتور! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم. فقد فجعه أخيل فى بوليدور، فلا بد أن يفجع ذيتيس وبليوس والدى أخيل فى أخيل نفسه..

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل..

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدما، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثاره ميتا، ولا بد أن يعود أخيل إليه به، فتقدم نحو هكتور وقال له :

«هلم يا بن بريام فتعجل قتلتك، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنا بها بعد اليوم!» وتهجم هكتور وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه وأطول فى مواقف الحرب باعا، ولكنه حذره من الغرور «ومن يدرى؟! هل أوجت إليك السماء أنك تقتل هكتور؟ وهل أخذت على المقادير عهدا ألا يصرعك هكتور..» ثم انقض ابن بريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل، ولولا أن مينرفا كانت جانبه تحرسه، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة.. لكان أخيل حديثا من الأحاديث..

وبهت أخيل، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل، وجاوبتها أسوار طروادة، ورددت أصداها أحواز السماء، وانقض على هكتور

يود لو يقتلعه من عربته فيضرب به الأرض، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم!

وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة، كما كان إلى جانبه دائماً. وراع الآلة الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التي يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه..

وذهل أبوللو ماذا يصنع، ليقى بطله من رمح أخيل؟!

ثم ذكر ما صنعه نبتيون مع اينياس، فنشر ضباباً كثيفاً أمام عيني أخيل، وتقدم إلى هكتور فحمله، وذهب به إلى حيث يكون بنجوة من مصير محزن، كان يوشك أن ينتهى إليه..

وظل أخيل يطعن الضباب، مشدوه اللب حيران!

طعنها مرة، ثم مرة ثانية، ثم ثالثة، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى أمحت وبطل السحر، وانكشف له الميدان يضج بالجند، ويعج بعدة الحرب، ولكنه مع ذلك، وغير ذاك.. خلو من هكتور!

«جميل يا هكتور! صل للإله الذى أنقذك اليوم منى! صل لربك أبوللو! لقد أنجاك من قتلة بينة، وموتة محقة.. صل له يا هكتور! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها، ولا أدري هل ينقذك إلهك عندها؟ إن لى أربابى التى تحمينى، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى.. سنلتقى يا هكتور.. فصل الآن لأبوللو...»

وثار أخيل فكان زوبعة!

وظفق يصرع أبطال طروادة، فطعن دريوس طعنة اخترمت حياته، ثم جندل ديماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة، وتقدم فإطاح رأس داردانوس العتيد، وجال جولة هنا وجولة هناك، فكانت المنايا تتعثر أنى ذهب، وإيان سار، فهذا «تروس» البطل ملقى على الأرض والدم ينبثق من كبده، وموليوس الصنديد زائف العينين يتوجع مما ألم به، وأخكلوس بن أجينور تساقط نفسه حشاشات، ثم

ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال، وبث اليتيم فى كل دار..
ها هو ذا فوق الثرى جسدا مثخنا، وجثمانا يتدفق الدم من جراحه..
نهاية حمراء لحياة حمراء.. كلها حرب وتقتيل!

ورجموس!

رجموس بن بريوس! الذى شد رحله من تراقية لينصر الطرواديين
على بنى وطنه.. فقاد جموعه التى لا حصر لها، مؤليا القبائل والأفخاذ
على الأرض التى أنجبته، والآلهة التى أنشأته.. لماذا؟ لا سبب معقول!
ولكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه.. ولأن الهيلانيين لم يختاروه
قائدا لهم فى هذه الحرب الزبون.

لقد امتشق أخيل سيفه، وأصلته على رأس رجموس ثم أهوى به،
فخر الخائن يتشطح فى دمه.. وانتهت بموته حياة ذميمة.

وزلزل قلب أزيثود.. حارس رجموس وسائسه. فود لو فر بعربة
سيده، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدت أضالعه، وذهبت بروحه إلى
حيث ذهب روح مولا..

طوفان

تفرزع الطرواديون مما أخذهم به أخيل،
وزادهم خبالا هذا الظلام الذي راحوا يضربون
فيه على غير هدى، والذي كانت حيرا تمد في
دياجيره فيتدجى فوق الساحة الصاخبة، ويمكن
لابن بليوس من أعدائه فيضرب في أقفيتهم،
ويهوى على أعناقهم، ويمسح بسوقهم ويضرب
كل بنان.

وضاق الحسر بجموع الفارين، فاضطروا
إلى خوض عباب النهر الزاخر، وخوضوا
بخيلهم ورجلهم.. وتطامن لهم سكمندر^(١)
فسكنت أودابه، ونامت جراحه، وانكشف قاعه
عن حصباء كالدر النضيد وتبعهم أخيل فخاض
مياه النهر، ثم أعمل سيفه ورمحه. فكانت
شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء، وأنين
القتلى يمتزج بأصداء المنهزمين والجماجم
المتناثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك،
والسما الكاسفة ترسل عقبانها تتغذى بالجزر
المتساقط في رحب المعركة، من بطون مبقورة،
وهام مفلقة، ولحم مفروم..

(١) النهر المحيط بطروادة .

واستطاع أخيل أن يحصر اثني عشر شاباً فيأخذ عليهم سبيل الفرار، وفضل أن يرسلهم إلى سفائته أسرى حتى لا يثخن في الأرض، وحتى يشهدوا ثمة ذلك القتل المسجى، تسقيه زيتيس الحزينة خمراً، فكبّل أرجلهم وأيديهم من خلاف، ووكل بهم جماعة من رجاله فقادوهم إلى الأسطول، بعدما وقفوا هنيهة أمام جثة بتروكلوس، يؤدون لها تحية المعركة التي دارت رحاها عليهم واصطلوا من بعده بنارها. وطفق أخيل يأخذ الجموع من كل حدب، ويلقاهم في كل صوب، حتى كان وجهها لوجه أمام «ليكاون بن بريام»، الذي كانت له معه قصة قديمة مشجية، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه، وحبسه في جزيرة لمنوس، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به، ورشوهم بمائة ثور جسد ذي خوار ليطلقوا سراحه!

مسكين «ليكاون بن بريام». لقد فر من جزيرة لمنوس منذ اثني عشر يوماً فقط، وسعى إلى هذه الساحة الزكراء ليلقى فوق أديمها حتفه، كما لقيه أخوه بوليدور من قبل.

ودهش أخيل إذا رأى ابن بريام يذرع الميدان أمامه، وعجب كيف أفلت من منقاه السحيق في عرض البحر. ثم أيقن أن في الأمر مكيدة فأنقض على الفتى المسكين انقضاض الباشق، وأرسل إليه طعنة نجلاء كادت تخرق أجله، لولا هذه اللفة الرشيقة التي انفتلها الشاب فأنقذت حياته.. ولو إلى حين!

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظبة سيف أخيل، وأحس كأن هذا الشبح يلاحقه في كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه، ثم ينشب فيه أظفاره فيسرى السم في هيكل الخاوى فلا يكاد يبين!

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف.. ولكنه كان أبطاً من حتفه الذي يسابقه، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار، ألقي سلاحه وتقدم إلى أخيل فقبل ثرى الساحة عند قدميه، ثم لف ذراعيه المرتجفتين حول

ساقى زعيم الميرميدون، وطفق يصرع إليه يقتله.. «فإن لى أما محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخى بوليدور الذى قتلتَه منذ لحظة، والذى أذويت شبابه النضر ولم تبق على عوده الفينان، ولم ترحم فيه قلوبا تعطف عليه، وأبا شيخا أصبته فى ولده بقاصمة الظهر.. أرسلنى يا أخيل تباركك الآلهة وترعاك أرباب الأولمب، ولا تقجع فى ذينك القلبين الحنينين على، الحفيين بى..»

وكان الفتى يغسل توسلاته بعبرات شبابه، ويصهرها بآهات صباه.. ولكن أخيل الذى يضطرم حزنا على بتروكلوس، لم تأخذه رحمة فى ابن بريام المسكين، وأخى هكتور الذميم..! بل استل جرازه البتار وأهوى به على عنق الفتى.. فطاح الرأس الطروادى الكريم..

وكان البطل الطروادى العظيم، سترابايوس بن بلجون، رب البركات الذى يدين له بحياته اكسيوس رب النهر الشرقى الكبير..

كان سترابايوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن بريام، فجزع - شهدت الآلهة - على ابن الملك، وأحزنه ألا يرق أخيل لتوسلاته، ووقر فى نفسه أن يقتص له من هذا الشيطان، ويخلص الطرواديين منه، فيطير ذكره فى الخافقين ويقترن اسمه بما لم يقترن به اسم احد فى العالمين. فيمم شطر أخيل والكبرياء تنفخ أوداجه والغرور يشيع فى أعطافه، ثم هز رمحه هزة المتحدى الخصيم وزجره أخيل فلم يزدجر، فانقض عليه انقضاض الحنف، وأخذه اخذ المنية، لا تجدى فيها إذا أنشبت أظفارها التمام، ولا تدفعها الرقى، ولا تفلت من أقصده ولو كان فى برج مشيدا

وأرسل أخيل رمحه كالصاعقة، ولو لقى الصخر لقده، أو الجبل لنفذ فيه، ولكن سترابايوس كان أرشق من أن يلقي الطعنة، فانزلق انزلاقة خفيفة اذهبت الرمح فى الهواء، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها، ومن ثمة راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه، فامتشق ابن بليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء، وانصدع من هولها

جانب الجبل، وهجم على سترابايوس هجمة رابية فلم يفلته، بل أرسل
السيف فى بطنه فخرج سنانه يلمع من ظهره، وبرزت الأمعاء فاجتمعت
حولها طيور الماء، تنوشها وتتغذى بها.

وريع سكمندر، رب النهر العظيم، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام،
يلفظ أنفاسه، ويساقط نفسه، فدارت الأرض به، وضاعت عليه بما
رحبت، وتجهم من توه لأخيل وود لو انشق فابتلع ابن بليوس آخر
الدهر، أو لو يأخذ هو سيفاً فيقد به أضلاعه، ويطيح به رأسه. ويريح
العالم من بأسه. ولكنه أثر، كإله له وقاره. أن ينذر أخيل ويأخذه
بالحيلة، فخاطبه من القرار، فقال : «أخيل يا بن بليوس العظيم! أنا
لا يهمنى أن تصطلم الطرواديين جميعاً، مادام زيوس قد سلطك عليهم
ورماهم بك.. أنا لا يهمنى من ذلك شيئاً.. ولكنى الذى يحزننى ويضيق
بى صدرى هذه الجثث الكثيرة التى يعج بها عبابى، وينتشر منها
الخبث فى أرجائى.. لقد انتنت يا أخيل، وخالطت عذوبة مائى، ولم يعد
لى بها طاقة، ولا عليها جلد.. وهى إلى ذلك كادت تقف تيارى، وتشل
حركتى.. فهل فارفعها عنى، وقف التصريع والتقتيل حتى تظهر
مجرأى من أدرانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها.»

وتبسم أخيل قائلاً : «أما أن أقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك
حتى آخذ بثأر بتروكولوس، وحتى أدك طروادة على رأس هكتور، فأما
أن ألقاه فأقتله وأما أن يلقانى فيقتلنى، وأما أن أظهر مجراك من هذه
الجثث الطافية فوقه فليس لى الآن بذلك يدان.. أو تضع هذه الحرب
أوزارها..»

وحقق سكمندر العظيم، وانطلق إلى أبولو يكلمه فى أمر أخيل،
ولم يدعه أبولو حتى أغراه باب بليوس أعدى أعدائه، وأشد شائثيه
وحتى أثاره عليه، وهاج فيه كل حقد دفين. وعاد سكمندر فأشار إلى
الماء فعلا وفاض، وإلى الموج فتلاطم وجرجر، وإلى الأواذى فدومت
وهومت، ولاحقت أخيل من ههنا وههنا، وفطن ابن بليوس إلى الخطر
الذى أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار.. ولات حين فرار.. فقد

أزبد الموج، وانساب العباب، وتشققت الأرض عيونا ومسائل، وعمقت اللجة، وبعد ما بين سطحها وبين قدمي أخيل، أو ما بينه وبين قرارها، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح في أغوارها، ويتعلق بالجثث الطافية فوقها.

واشتد الخطب، وعظم الكرب، وصرخ أخيل يستنجد أربابه، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت إليه، وأمرت فلكان ابنها فانطلق يجفف الأمواه بنيرانه ويرسل على الطوفان بدخانه، ويستعين في كل ذلك بالهة الرياح التي هرعت إليه من كل صوب تساعده، وكان زفيروس الكريم يهب على النهر اللجى سحسجا، ويذهب منه بكل مزنة مثقلة، وديمة محملة، فلم يمض غير بعيد حتى صفا الجو، وغيض الماء، وبرز أخيل يحمل عدته، فطربت الآلهة لنجاته، وانقض فلكان على سكمندر يحاول أن يثار لأخيل منه.. ولكن سكمندر يعاهد حيرا - إذا هي صدت عنه ولدها فلكان - أن يحصر الطرواديين بموجه، فلا يمكنهم من الدخول إلى مدينتهم، ويجعلهم بذلك هدفا لأخيل يصنع بهم ما يشاء!



وتثار الخصومة بين الآلهة لموقف فلكان من سكمندر.. ويغيظ مارس من مينرفا أنها تؤيد فلكان وتحرضه على رب النهر المسكين الذي أفزعته النيران تأخذه من كل حدب.. فتقدم إليها وطفق يقرعها وتقرعه، ويرميها بالمثالب وترميه بها.. ثم تناول رمحه العظيم واستجمع كل قوته، وأرسله يود لو يقضى به على ربة الحكمة الحازمة، ولكن، ويل لك يا مارس لقد ارتد الرمح، لم يستطع إلى درع مينرفا من سبيل، وانحنت.. الآلهة المغيظة فأخذت حجرا من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدقت عنقه وقصمت ظهره وتركته على السفح الشاحب لقي من القاء هذه الحرب!

وظل مارس ممدا على السفح يخور ويئن، ويتلوى بجثته العظيمة^(١)

(١) جاء في الميولوجيا أن طول مارس سبعمئة قدم.

التي كانت ترتطم بالجبل فتميد به وتهزه هزا شديدا.

وأقبلت فينوس فوقفت تواسى مارس وتهون عليه ما فعلت به
مينرفا، ثم انهضته وانصرفت به، ولكن حيرا أرسلت فى أثرهما مينرفا
ترى ما يكون من أمرهما.. بعد كل تلك الفضائح التي لوثت شرفهما،
وجعلت اسميهما مضغة فى جميع الأفواه..

وأقبلت فينوس على مارس تشفى حرقة فى قلبه، وتنيله من الطافها
ما تنسيه به بعض الذى لقيه من أذى.. ولكن مينرفا أهابت بهما..!
وظفقت تنصح لهما أن يدعا طروادة فلا ينصرها على شعبهما
المختار.. هيلاس العزيزة! ولكن..! لقد أسمعت لو ناديت حيا! لقد أعطت
فينوس باريس موثقا، وإن فينوس لصادقة «ا».

وانطلق نبتيون يعظ أبوللو، ويصرفه هو الآخر عن مؤازرة
الطرواديين، فذكر له يوم أن نفاهما زيوس إلى أقصى الأرض، فأتيا
إلى طروادة، وعملا فى خدمة أميدون الجبار ملك طروادة، الذى لم
يتورع أن يرسل أبوللو فيرعى له قطعانه، ويسمن نعمه وشاءه^(١)، كان
لم يكن أبوللو ابن إله عظيم، وكأن لم يكن هو نفسه إلها عظيما..!

«أتذكر هذه الأيام يا أخى أبوللو!!.. أتذكر أيام أن كان هذا العاتية
العنيد يسومنا الذل، ويقهرنا غاية القهر، وينزل بنا أشد ألوان الخسف،
متذرعاً بغضب سيد الأولمب علينا، لا تأخذه بنا رحمة، ولا يهمله أن
نتبرم ونتسخط، مادام - فيما كان يزعم - يؤدى ما أمره به أبوك
زيوس!!»

فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أبوللو «.. ماذا تذكر من حسنات
لملكها اللعين أميدون؟! أنسيت يوم أسخطناه بالتراخى قليلا فى عملنا،
فأمر بنا فقطعت آذاننا وشد وثاقنا وأصبحنا ضحكة كل راء؟! لا لا
يا أبوللو.. أنا لا أرتضى لك أن تكون غيبا إلى هذا الحد..»

(١) ماشيته وغنمه .

وعملت فيه كلمات العم نبتيون عملها، فعاهده ألا يخوض غمار هذه الحرب كرة أخرى، وقاسمه ألا يسدد فيها بعد اليوم سهما.. ولو غيرته أخته ديانا ألف تعيير.

وماذا لو غيرته ديانا، ورمته بالجبن أمام نبتيون؟! ها هي ذى حيرا تسمع إلى ربة القمرة، فتقذفها أشنع القذف وأمره^(١)، ثم تهجم عليها فتكبلها، وتنثر كنانة سهامها، وتمضى بعد ذلك لشأنها.. وتأتى لاتونا - أم ديانا الباكية - فتواسيها وتذهب وإياها إلى زيوس، المتربع فوق سدة الأولمب فتشكو إليه ما لحق ابنتها من زوجه.. ويغضب الإله.. لأنه ليس له على حيرا يدان..»

ويتم الظفر لأخيل وجنده بعد أن ينسحب أبوللو من المعركة، فيأخذ الطرواديين أخذ عزيز مقتدر، ويقف بريام الملك فى برج شاهق، يطلع على الساحة، ويشهد هزائم جنده، فتدمع عيناه.. ويأمر بالبوابة الكبرى فتفتح، ويهرع الجنود ناحيتها فرارا من أخيل وشياطين أخيل، ولكن أخيل وشياطين أخيل تشطر الجنود الفارين شطرين، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية من الميرميدون أن ينفذوا إلى البوابة الكبرى، ويدخلوا طروادة فاتحين..!!

وهناك! يظهر لهم أجينور البطل الطروادى الحلال، ويأخذ مع أخيل فى ملامحاة عنيفة، ثم يتقارعان برهة، ويصاول أحدهما الآخر. ويكون.. أبوللو..! إلى جانب أجينور يحضه ويحرضه، ويثبت قدميه.. ناسيا موائقه التى قطعها على نفسه أمام نبتيون.. ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة.

لولا أن يعز على أبوللو أن يلحق أجينور بصاحبه استرابيوس من قبل، وبعشرات الأبطال من مثل استرابيوس، فيتقدم إلى أجينور يحميه، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها.. مضللا أخيل عن خصمه ومبعده خارج البوابة التى يقفلها الطرواديون من دونه.

(١) لم يتورع هوميروس أن يتقازف الآلهة بأخس ألوان الفحش، فاثار بين حيرا وديانا سبابا ليس مثله سباب لا نستطيع إيرادها هنا.

مصرع هكتور

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم، وظلوا
يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذى يتلقفهم
عن شمائلهم وعن أيمانهم، ومن فوقهم ومن
تحت أرجلهم، كأنما جثمت المنايا فى كل خطوة
فهى لهم بالمرصاد.. طالما يكر أخيل هنا ويفر
هناك، وتكر من خلفه وتفر شياطين
الميرميدون، صائحين متهدجين «يا لثارات
بتروكلوس!».



ووقف أبولو وهو يتميز من الغيظ يشهد
المعركة، ويرى أخيل يحصد تلك الرؤس اليائعة
التي لم يحن بعد قطافها، فلم يملك أن دنا منه
وقال :



«على رسلك يا ابن بليوس، فكأنى بك
ما كفاك من صرعت حتى لتحذثك نفسك بقتال
الآلهة، ومحاربتي أنا من دون أرباب الأولمب
خاصة! ولكن هيهات! فإنك لابد يوما ذائق
الموت الذى لن يذوقه إله فى الأرض ولا فى
السموات.. فأقصد فى تقتيل هؤلاء الأبرياء،
ولا يغرنك نصر قد تكون فى آثاره هزائم..».

وعبس أخيل عبوسة قاتمة، ثم نظر إلى

أبوللو مغضبا وقال : «حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود، وما فوت على من ثارات، أعرج فى سمائك الشاسعة، ودع بنى الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف.. لقد انقذت خصمى من قتلة محققة، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار، ليمرح فى كتفك الفجار الأشرار؟».

وانطلق أخيل يعدو فى أثر هكتور، وكان هكتور قد أخذته العزة أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين.

وكان بريام، الملك الشيخ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته، فرأى ابنه واقفا فى إحدى حنيات الأسوار يستجم ويرسل فى رهج الميدان عينين سادرتين محزونتين، تشفان عن قلق عميق، واضطراب دوى، فريع الأب المفتود، وزلزل زلزالا شديدا وطفق يئن أنينا عاليا، ويضرب صدره الموهون بيديه الواهيتين، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الاسكائية قبل أن يلحق به أخيل، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون.

« أى بنى ! هكتور! فيم تقف فى هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة، جزاء قتله بنى، وإهداره دماء مواطنى!

هلم يا بنى فحسبى ما جزعت على بوليذور، وحزنت أمضى الحزن وأوجعه على ليكاون، وما حطم قلبى من الأسى على أبناء اليوم!

هلم يا بنى فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها، وليس لها بعدك من ولى ولا شفيع!

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن، وأوقرت ظهره ويلات الحرب وأغطشت عينيه أرزاء هذا البلاء، فلا تكن أنت محنة المحن التى تحل به، واستبق شبابك له يتسل بك، ولأمك المفجعة تستلهم بقربك الصبر، على ما كرثها الزمن الضارم من نكبات يلاحق بعضها البعض، وتأخذ أولها بتلابيب آخرها، مشرق كل شمس وكل مغيب شمس.

هلم يا هكتور إلى ! إلى والدتك! إلى زوجتك! إلى طفلك الذى تسلمه
للبيتم، وتدعه خلفك للشقاء!

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائى يحطن أشراق أيامنا ظلمة،
ويصيرن لآلاء الحياة قتاما، ويرسفن فى أغلال الاستعباد حيث يقمن
فى خدمة الاغريق اللؤماء!

هلم إلى يا بنى فوآرباب أرباب الأولمب أنى لارتعد فرقا كلما خلّتك
ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير، منبوذا لضواري هذه البرية التى
طالما أطعمتها وأكرمت مثواها..».

وصمت الملك، وراعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته، بل لبث مكانه
يرمق الميدان، فراح يضرب يدا بيد، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على
رأسه المجلل بثلج المشيب وندف الأيام، وبهذه الشعلة البيضاء التى
زادتها أحداث الزمان اضطراما..

وكانت هكيوبا إلى جانبه، هكيوبا مليكة اليوم.. هكيوبا الأم.. التى
فجعها أخيل فى عدد من أعز أبنائها، ويحاول اليوم أن يفجعها فى
هكتور، ابنها البكر، وتاج الأمومة الواضح، الذى تفخر به كل أم، وتدل
به كل والدّة!

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : «هلم يا ولدى فإنك وحدك
لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند، بل لو أن معك
الفا من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون
المقنعين فى حديدهم، المدلين بعديدهم.

هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنقوانك لأمك المحزونة التى لم يبق
لها من ولد غيرك، ولا عز إلا فى جوارك، ولا حمى إلا فى كنفك،
ولا مجن يرد عنها عوادي الأيام إلا فى ظلك، ولا فخر لها بين النساء
إلا فخرك وما تمد الآلهة فى أيديك، وتشد به أزرّك..

هلم يا بنى فلقد أزعجتنى الرؤى، وروعتنى الأحلام، وجثمت فوق

صدرى أشباح هذه الساحة التى تفتأ تلبس الحداد وتخلعه، وتغرى بالنصر ثم تنزعه، وإن سرت بطلا بفوز تنكص فتفجعه، فتقد أضلعه وتمزج بدمه أدمعه..».

وكانت الملكة، كما كان الملك، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع، وأحر الأهات، بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التى تتحوى وتتكوم فى انتظار عابر تنقض عليه، وكأنه يمنى نفسه أن يأخذ أخيل على غرة، فيريح طروادة منه، ويضفر لنفسه بنفسه أكليلا من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل.

وكانت توسلات أبويه تتناثر حول أذنيه، ولا يصغى لها قلبه، بل هو قد ظل يحلم فى يقظته أحلاما معسولة، كانت تطن فى خلد هكتا : «ضلة لى إذا ثنيت عنانى إلى المدينة ألوذ بها من أخيل، فارسف أبد الدهر فى حضيض العار! وأطاطىء حياء كلما لقيت طرواديا يهمس فى أذن أخيه : إن هذا هكتور الذى ولى دبره، ونكص على عقبيه، ولم يجرؤ أن يلقى أخيل بمفرده فى الميدان، وأين أذهب من غادات اليوم وحرائرهما إذا أنا وليت الأدبار، وما هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمرى مع ابن بليوس الذى تفزع الآلهة من ضرباته! وتمور الأرض تحت عجلاته، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه، فى حين يبرز منها كالكواكب الدرى! حاشاى أن أعود أجرر أذيال الخيبة، فإما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره، وإما أن يريحنى هو من هذا الهم المقيم فأقضى فى سبيل بلادى من أجل مملكتى».

«ثم فيم صراخ أبى وعويل أمى! أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة، ثم يفتحها أخيل على، فيذبحنى كما يذبح شاة لا حول ولا طول، أو يضع الأغلال فى عنقى ويجرنى فى شوارع «اليوم» كما تكون اذن الجارية فى يد النحاس بسوق الرقيق!؟»

«حاشا.. بل خير لى ألف مرة أن أخوض خبار المعمة، مادام لن يضيرنى إلا ما قضت المقادير على..».

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجها لوجه، وعلى كتفه الرحب الهيكلي رمحه الزمامي العتيد، وفوق صدره العريض الممرد سوابغ دروعه التي سردها الإله الحداد فلكان، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراء الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة، وتذيب في الجوارح كهرباء الرعب، وتشعل في الرؤوس ضرام المشيب!!

وزاغ بصر هكتور، واضطربت مفاصله، ونخب قلبه، واستطير لبه وأحس كأنه جبل ينحط على روحه فلا يكاد يفلتها، وذاب الثلج في عروقه فجمدت من الروح والفزع، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم، وتلعب بفؤاده المفزع...

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل، ولكن إلى أين؟ إنه حيثما ولى فثم وجه أخيل!! إن أخيل غدا ألفا لا حصر لها من الأشباح المفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء، وتأخذ على الطرواديين أنفاسهم!

وانطلق ابن بليوس في أثر هكتور، وأشرف عذارى اليوم يطلن من أبراج المدينة الخالدة ويمسكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الخوامح.. وكان كلما أغذ هكتور، خف أخيل في أثره، فكانا كالأبردين^(١) : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل، حتى نال منهما الجهد، وتفزعَت الآلهة في علياء الأولمب اشفاقاً على ابن بريام العظيم، ورثاء لابن بليوس المتهدج الوجه ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء.

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور، لولا أن أقنعت ابنته، مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة، فنحتة عن طريق الأقدار، وأخلت بين أخيل وخصمه.

وطافا حول طروادة ثلاثاً، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر، فهوت كفة الحق بقتل هكتور، وأريد وجه أبولو وأسقط في يده، وانطلق يضرب أخماساً في أسداس..!

(١) الليل والنهار.

وأسرعت مينرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء، وأثرت له أن
يتلبث مكانه يستجم نشاطه، ويتنفس الصعداء حتى تذهب هي إلى
هكتور فتغريه بقاء خصمه، وتنفره من هذا الفرار الذى أضحك منه
قيان اليوم وحسانها..

واستخفت مينرفا، وبدأت لهكتور فى هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس،
ثم راحت تحضه على الحرب، وتحرضه على أخيل، وتهون له من شأن
زعيم الميرميدون، وتعاهده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به
وتنصره السماء عليه نصرا عزيزا..

ولم يشك هكتور فى أن الذى يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس،
فوقف قليلا يفرج عن قلبه بعض ما كربه من روع، وراح يمزج شكرانه
لأخيه بدموع الفزع، وذلة العبارات المتقطعة الحزينة، وخفقان القلب
المضطرب ذى الوجيب!

وانثنى هكتور للقاء أخيل.

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلا، بعد إذ كان مدبرا، حتى طرب
قلبه، وشاعت بشاشة اللقاء فى زنده القوى وسواعده المفتولة، ثم
انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ، تستعر بالتشوف إلى الانتقام
فى فؤاده، وتضطرم بلبلى البطش فى سويدائه، وتطل من عينيه تود
لو تنقذ فى أضلع هكتور..؟

وقال هكتور: تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أنى كنت ألوذ بأذيال
الهرب منك، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة حول اليوم.. لا.. لا..
فإننى ما حاولت إلا إجهادك، وأن ينال الأعياء منك.. والآن، هأنذا قد
انقلبت للقائك فأما أن أقتلك، وأما أن تروى رمحك الظامىء من دمي..
ومن يدرى؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب، لا يعلمها إلا
سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه!

بيد أننى أطمئنك من الآن يا أخيل، أن أظفرتنى السماء بك، فلن
أضحك فى هذه العدة السابغة من فوقك، ولن أنزع عنك تلك الدروع

الضافية التي لن تنفك من المقادير فى شىء.. ثم أعدك أيضا ألا أفضحك بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثة لا نائمة فيها ولا حياة.. لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك، وتنفوشك سباع البرية الموحشة التى تعج بالضواري والكلاب.. لا.. لن أفعل من ذلك قليلا ولا كثيرا. بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك إلى سفائنك عزيزا فى قتلتك، كما كنت عزيزا فى معاشك.

والآن يا بن بليوس! هل تعدنى الوعد الذى وعدتك، وهل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك، إن أظفرتك السماء على..؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن بريام، ويقذفه بشواظ من الكلم المحنق والقول المضطرم، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التى تمرق إلى هكتور كالبرق الخاطف، لو أصابت منه عضوا لذهبت به إلى الجحيم..

ولكن هكتور العظيم ينقتل كالبرق الخاطف، فيهوى رمح أخيل إلى أرض الساحة، ويغوص ثمة إلى ثلثيه.. إلا قليلا.

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل لو لم تكن مينرفا حاضرة، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل.. فلقد سارعت إلى الرمح فانتزعته من الأرض، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور.

وقبل أن يتهيا لها أن تصنع ذلك، قال ابن بريام : «أخيل! ها قد طاشت ضربتك وأن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها!! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور غريمك وخصمك، فلتبحث الآن عن رأسك يا بن بليوس..» ولم يكد البطل المسكين يتم قوله ويضيع بها فرصته حتى كانت مينرفا قد أعادت الرمح إلى أخيل..

وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعة ساخرة بما قال هكتور، الذى داعب هو الآخر رمحه، ثم أرسله كأنه الحنف فارتد على درع فلكان، ثم هوى إلى الأرض، فغاص فيها، وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيه

بينهما، وأصبح الموت، أقرب إليه من حبل الوريد، وتلفت ابن بريام
يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر، فصاح من الوجل :
«ديفوبوس ! أغثنى يا ديفوبوس! أدركنى يا ديفوبوس! هات لى رمحا
يا ديفوبوس».

بيد أن ديفوبوس لم يفته ولم يدركه ولم يحضر له رمحا، وبدت له
مينرفا وهى تبتسم ابتسامة خبيثة زلزلت أركان هكتور، الذى فطن إلى
الحيلة التى جازت عليه، فقال يخاطب الربة الساخرة، وهو يكاد ينشق
من الغيظ : «يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة، فتقضى بموتى فى معركة
لا أحمل فيها سلاحا.. ولكنى سأقاومك يا بن بليوس، فإذا سقط فلن
يكون لك فى ذلك فضل ولا محمدا، واذهب من بعدها فصل للخاتلة
التى نصرتك وأزرتك».

وامتشق المسكين سيفه، ولكن ماذا يصنع الجراز البتار فى ملحمة
لا يقطر الموت فيها إلا على أسنة الرماح!

لقد انقض أخيل على فخر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكة من
رمحه الظامىء نفذت فى عنقه، وهوت به إلى أدنى الأرض المقدسة
التى طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء.

..«هكتور! اليوم شفيت حزنى الممض على بتروكلوس.. واليوم
تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا حميدة.. يا كلب طروادة
المذءوم!! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء
لوحوش طروادة وجوارح طيرها.. ألا فحدث نفسك الآن ماذا صنع
القدر بك...!»

وتهدج هكتور قائلا : «أخيل! يا بن بليوس العظيم! استقسمتك
برأسك الرفيع، وأبويك الحبيبين، ألا تأخذ جثتى فتنبذها لكلاك، وتعفر
جبينى الحر بثرى المذلة بين أصحابك، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك
بى، وأن المقادير السود قد نصرتك على».

فيقول أخيل، وقد زهاه النصر على الد خصمائه : «اطمئن يا هكتور،

فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال، وستكون لها وليمة فاخرة..
فورأس أبيك لو ملأ لى بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك،
ليعود بك إلى اليوم، ما رضىنا بك بديلاً.

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جاثمة على صدر هكتور
تعذبه وتضنيه، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة، ويفتح عينيه
ويقول : «أخيل! لا تغتر بما تم لك من نصر، فباريس أخى سيقص لى
منك، وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلى.. فى هيدز..
وثمة سنلتقى!».

ويموت البطل..

وتنطوى صفحة مجيدة من صفحات طروادة. بل تنطوى أنصع
صفحاتها جميعاً، يموت هكتور.

يا عجباً!

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه، عندما أنذر أخيل
بسهم باريس؟!

وازدهم الهيلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوما عجزوا
عن ايصالها إليها حية، فأبوا إلى أن يصلوها بها ميتة.

نزل أخيل من عربته، فأنحنى على الجثة، ونزع تلك العدة العزيزة
التي نزعها هكتور من جثة بتروكلوس.. عدة أخيل.. فلن تكون بعد
اليوم إلا لأخيل!

واستل ابن بليوس خنجره، وأهوى على عقبى هكتور فخرمهما،
وربط القدمين العريزين فى مؤخرة عربته الحربية! ثم ألهب جياده
فهامت على وجهها فى الساحة، وطفقت تطويها مثنى وثلاث حول
اليوم، والرأس العظيم يتعثر بشرى المعمة الذاهلة، والطرواديون فوق
الأسوار ينظرون ولا يحIRON.. إلا هذا الملك الشيخ.. بريام المذهول :
الذى راح يملأ الفضاء أنينا موجعا، وشجوا مفزعاً.. وإلا هذه الأم

المرزاة.. هكيويا الملكة.. التى راحت تحثو التراب فوق رأسها، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح..

أما أندروماك.. فلها السماء.. ولها الآلهة!

لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور، وترشق الورود فى أرائك المخدع، وتعد الحمام الساخن لغسل ثرى الميدان.. ولم تكن تفكر قط إلا فى عودة البطل مخضب الذيل بدماء الأعداء..

ولكنها سمعت لغطا وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر.. وكان هاتفا من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبا.. ولكنها شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الاسكائية.. حيث وقف بريام يبكى ولده.. فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذرى دموعه.. وما كادت تطل من شرفة البرج فتري هكتور مربوطا فى عربة أخيل، وأخيل الجبار يطوى به الساحة، ويذرع به الميدان.. حتى وجفت نفس الزوجة البائسة، وخرت إلى الأرض.. وطفقت نفسها تساقط عليه أنفسنا.



وأفاقت أندروماك التعسة..

وظفقت تبكى زوجها، وترثيه بالدم.

بمسد مصرع هكتور

انتصر أخيل..

وعاد بجثة هكتور ليجد أمه لا تزال تسقى
بetroكلوس خمرا، ولا تزال تدفع عن القتل
المسجى فوق سرير الموت أسراب الذباب،
ولا تزال تذرف الدموع الغوالي!

ويهرول زعيم الميرميدون، ويهرول معه
جنوده حول جثة صديقه ثلاثا، ثم يقف فوق
الرأس المتشع بجلال الفناء. ويقول :

«السلام عليك يا بتروكلوس فلقد تأثرت لك
السلام عليك فانت خير حياة من كثيرين ممن
ينعمون بالحياة، وإن تكن تسبح فى لا نهاية
هيدرا!

هاك غريم هكتور سأتركه جزر السباع
وكواسر الطير، وسأضحى لك باثنى عشر من
خير شباب اليوم.. أذبحهم عند قدميك بيدي!»
«ابكوا بتروكلوس يا رفاق!».

فيبكى الميرميدون على بطل أبطالهم،
ويعولون حتى تخفق السماء بأناتهم، وتضطرب
الأرض بزفراتهم، ويمتلى الهواء من حولهم
أسى وشجونا..

ويقبل الهيلانيون من كل فج يهنئون ويعزون: يهنئون بقتل هكتور،
ويعزون، ويا حر ما يعزون، فى بتروكلوس!

ويمتلى بهم شاطئ الهلسبنت^(١)، ويأمر أخيل رجاله فيأتون بالشاء
والظباء، وبكل عجل جسد وخنزير سمين، وتؤجج النيران، ويسطع
الشواء حتى ينضج، وتكون وليمة يقبل عليها القوم أيما إقبال.. إلا
أخيل.. المنعكف وحده بذرف الدموع على بتروكلوس.

وأمر أجاممنون بماء ساخن يغسل به أخيل ما عليه من نضح الدم
وغبار المعركة، ولكن أخيل يأبى إلا أن يظل النضج ويبقى الغبار حتى
يتم تحريق بتروكلوس، وحتى تنتهى المراسيم الدينية التى تقتضيها
السماء.. ويفرضها بلوتو^(٢) على موتاه!

وتفرق الهيلانيون بعد أكل شهى ورى، ونهض الميرميدون إلى
خيامهم يخلعون عددهم ويستجمون من عناء اليوم الحافل، ولبت أخيل
وحده على الشاطئ الشاحب يرقب أواذيه الصاخبة، ويرى أعراف
الموج تنتطح هنا وهناك، وترتد ثم ترتد حتى تغيب فى لا نهاية
الماء !

ثم غفا اغفاءة فتمدد على العشب، وأسلم جفنيه لنوم عميق.

ورأى ظلا حزيناً يطيف به، ولا يكاد يبين، فتقلب ذات اليمين وذات
الشمال مما تأخذه الرؤيا به، ولكن الشبح ما يفتأ يهوم ثم يهوم،
ويقتررب ثم يقتررب، حتى يكون عند رأسه، وحتى يقر النائم فما تبدو
منه حركة، ويسكن فما يتردد فيه نفس، ويحسر الزائر لثامه، فإذا هو
بتروكلوس!

لقد أقبل روحه الكبير يتحدث إلى مولا، فيقول :

«أخيل! أهكذا تنام ملء عينيك وتدع صديقك يهيم فى مملكة الظلمات

(١) الدردنيل .

(٢) هو رب الدار الآخرة.

دون أن يؤذن له بعبور ستيكس الفائض بالحميم، ليقر في عدوته
الأخرى مع المؤمنين! إننى يا صديقى سأبقى طريدا شريدا ما دمت
أنت متوانياً عن تأدية الطقوس التى يتطلبها بلوتو وتفرضها السماء!

ماذا تبتغى بعد أن ثارت لى يا أخيل؟ ألا يشجيك أن أظل معذبا فى
هذا التيه الذى لا نهاية له، كاسف البال مسبوه اللب، لأنك تأبى أن
تؤدى لى فرائض الآخرة!

أتحسب أنا ملتقيان فى دنياك كرة ثانية يا أخيل، فأنت تنتظر هذا
اللقاء؟ لا، لا يا صديقى، نحن لا نلتقى إلا هنا! فى هذه الدار الجميلة
الهادئة التى لا صخب فيها ولا ضجيج.. سنلتقى هنا.. وسنلتقى
سريعا.. ولن أزعجك إذا أخبرتك بما علمته هنا!.. أنك ملاق حتفك تحت
أسوار طروادة.. لا تنزعج يا أخيل، فأنت بطل، والأبطال أمثالك
لا يرهبون الموت، والبطل الذى لا يجرع الكأس طافحة فى حومة
الوغي يموت موة لا تشرفه.. فأطمئن! إنما ذكرت لك ذلك لأن لى
رجية عندك أتمنى لو أديتها لى.. ذلك أن توصى فتدفن رفاتك فى نفس
الرمس الذى يضم رفاتى، لنظل آخر الدهر متقاربين، كما كنا أول الدهر
متقاربين، ولنقضى أحقاب الموت فى مربع معا، كما قضينا شرح
الشباب فى ملعب معا.

أبدا لن أنسى يوم حملنى مولاي الأمين امفيداماس من نجاد
أويوس إلى بلاط بليوس، حيث نشأت وترعرعت فى ظلال القصر الذى
ترعرعت فيه يا أخيل.. وأبدا لن أنسى هذا الحنان الذى كانت تغمرنى
به ذيتيس، أمك الرءوم، حتى اشتد ساعدنا، وسار الركبان باسمينا فى
كل ناد.

هلم يا أخيل.. انهض يا زعيم الميرميدون.. واذكر ما قلته لك..

ويذرف أخيل عبرة غالية، ويجيب بتروكلوس فيقول :

«بتروكلوس! إلى يا أعز الناس على! سأفعل كل ما تريد، ولكن
اقترب.. اقترب قليلا.. لنسر من أحزاننا يا أخى! هب لى أن أعانقك فأنا
مشوق إليك!».

وهب من نومه مذعورا ماذا ذراعيه لعناق بتروكلوس، ثم ضمهما فجأة.. ولكن!

وأسفا!.. لقد ضم أخيل إليه الهواء!.. لأن الشبح العزيز قد ولى بعيدا.. عنه.. هناك.. هناك.. فى ظلمات السفلى.. فى ديور الدار الآخرة.. فى مملكة بلوتو الجبار.. حيث الأرواح والأشباح.. وحيث العذاب والنعيم!..

صرخ الزعيم المفتود صرخة زلزلت عماد المعسكر، واجتمع لها القادة مشدوهين مروعين، وروعهم أكثر هذا الحديث الطويل عن الرؤيا المشجية، فأنفذ أجاممنون الملك عصبة قوية إلى غابات الصنوبر والشاهبلوط القريبة، فجمعت احتمالا ثقالا من جذوع الأيك وحطام الدوح اليبس، وأقبلت فكومت ما جمعت كومة واحدة عالية، ثم أمر أخيل جنوده فاصطفوا حول الكوم بعددهم وعددهم وخيولهم وعرباتهم، وأقبل فوج منهم يحمل جثمان بتروكلوس، موارى فى شعر كثير انتزعه الفرسان من رؤوسهم حزنا على قائدهم بالأمس، وكان أخيل يتعثر خلف القتل وقد حطمه الحزن ورزأته المصيبة فى أعز أصدقائه، وغشيه من الهم ما لو كان بعضه بوضح الضحى لأحاله ليلا من الوجد مظلما.. ونزع شعر رأسه هو الآخر فغطى به وجه صاحبه، ومد ذراعيه المرتجفتين فرفع الجثمان الطاهر، يعاونه نفر من الميرميدون، ووضعوه فوق الكومة التى تسامت وسمقت حتى غدا ارتفاعها مائة قدم أويزيد.. وأمر أخيل فذبحت ألوف من العجول والخنازير والنعم ونزعت عنها شحومها جميعا، فوضعها بيده على الكومة من حول بتروكلوس، ثم أشار إلى حملة الزقاق فطفقوا يصبون الزيت والعسل المصفى ليزيدا فى ضرام الوقود.

وارتفع ضجيج بعيد وضوضاء، فتلفت القوم، فإذا فريق من الميرميدون يسوقون الشباب الطرواديين الاثنى عشر الذين أسرههم أخيل فى ملحمة الأمس، وقد كبلوا فى الأصفاة، ورهقتهم فترة مظلمة، من الروع والحزن، فلما شارفوا، تقدم أخيل المغضب المحنق، فاستل

خنجره، وشرع يمسح بأعناقهم ويبقر بطونهم، ويروى سنانه من قلوبهم.. والبشرية البائسة تتلفت يمنه ويسرة.. وتتعذب وتبكي!

وأمر الزعيم فصفت الضحايا الاثنتا عشرة من حول الكومة.

أما هكتور! فقد حذجه أخيل بنظرة ساخرة وأقسم ألا يحرق جثمانه فينفذ روحه إلى هيدن، بل يتركه ثمة حتى تنوشه الطير وتأكله كلاب البرية، وتلقى عظامه فى اليم، غير كريمة ولا مرجوة!

بيد أن منظرا عجبا خلب الباب القوم، وأذهلهم عن أنفسهم.. ذلك أنهم رأوا شبحا جميلا أبيض، يصب دهن الورد فيجعل منه حنوطا مباركا لجثمان هكتور، ورأوا كذلك ضبابه ذات أفياء وظلال باردة تقف من فوقه فتذود عنه أشعة الشمس المحرقة حتى لا ينتن أو يتعفن..

ماذا؟! آه؟! إنها فينوس الوفية التى تصب دهن الورد فوق هكتور، وأنه أبولو المحزون الذى ينشر الضبابه من فوقه لتقيه من الشمس وتذود عنه حرارتها!

وصلى أخيل صلاة قصيرة، ونذر لآلهة الريح إذا هى أقبلت تروح على النيران حتى تذكو، أن يذبح لها ويقرب لها القرابين! وما كاد يفرغ من صلاته، حتى تقلب البحر واضطرب. ومار اليم واصطخب، وثار العاصفة الهوجاء فى بطن الدماء، وأقبل زفيروس وأخوته آلهة الريح فحاصروا الكومة، وما هى إلا لمحات حتى كانت ضراما فى ضرام، ولظى يتأجج فى لظى.

وسكن اللهب، وخف أوار النار، وتقدم أخيل وحمله الرفاق فصبوا عن الجمر خمرا حتى خبا.

وتقدم نفر فرفعوا رفات بتروكلوس وهم يبكون، وأقدم أخيل فوضعها بيديه فى أران^(١) من الذهب، وأشار إلى بعض أصحابه

(١) تابوت .

فحفروا فى الأرض حفرة كبيرة عميقة، وأسرع هو فوضع الأران فيها،
بين أنين الجند، وبكاء القادة، وزلزلة الأرض والسماء !.

وهيل التراب على الميت، وعمل الكل فى ذلك حتى كانت كومة عالية
من الردم، ستظل آخر الدهر رمز البطولة الخالدة، وتحية الدار الآخرة
لهذه الدنيا المشحونة بالأشجان!!

وكان من دأب الهيلانيين إذا مات أحد أبطالهم أن يحرقوه كما
حرقوا بتروكوس، ثم تتلو ذلك حفلة ألعاب يشترك فيها أبطالهم،
ويسهم فيها الجندى الصغير إلى جانب القائد العظيم، وقد يفوز عليه
فينال الجائزة من دونه، وكانوا يعدون هذه الحفلة متممة للجنازة
لا يكمل إلا بها، فلما انتهوا من اقامة الشعائر الدينية للشهيد الكبير
نهض أخيل فأعلن القوم بدء حفلة الألعاب ثم دعا للمشاركة فى سباق
العربات الحربية، وعدد الجوائز، فذكر أن للفائز الأول غانية من أبرع
غانيات طروادة جمالا، وأوفرهن حسنا، وأنبغهن فى القيام بشئون
المنزل، ثم أنية عظيمة من الذهب الخالص، غالية الثمن، عالية القيمة،
لا تقدر بمال لما بذل فى زخرفتها ونقشها من فن، وما أضفى عليها
من عبقرية، وإن للفائز الثانى مهرة صافنا تسبق الريح وتلحق البرق،
وللثالث كوبا من الفضة الناصعة، عظيم القدر، غالى الثمن، والرابع
بدرتين من الذهب الابريز، والخامس ابريقا فضيا للخمر، وكأسين
للشراب.

واشترك فى هذا السابق لهاذم أبطال الاغريق، وصناديدهم الصيد،
وكان أول من نزل إلى الحلبة يومليوس الملك ابن ادميتوس العظيم،
وتلاه ديوميديد الحلاحل بن تيديوس، ثم منلوس سليل السماء، وفرع
الآلهة بن أتربوس الكبير، وكان رابعهم انتيلوخوس المشهور بن
نسطور الحكيم، الذى أخذ أعين القوم بقامته السامقة، وعوده اللدن،
وقوامه الأهيف السمهرى الممشوق، والذى تقدم إليه أبوه فقبله فى حر
الجبين، وزوده بنصائحته الغوالى، وكان خامسهم مريونيس الهائل،
صاحب الذكر البعيد، والشاؤ المجيد، فى كل مثار نقع وفى كل ميدان.

وكان على الفارس العظيم فونيكس أن يلاحظ السباق، فكان في مركزه هذا حكما عادلا وقاضيا ماهرا..

وأعطى أخيل الإشارة.. فانطلقت الجياد تزلزل الأرض، وتثير عجاجة قاتمة من ثرى الميدان، وتضرب الصخر بحوافرها فينقذ الشرر، ويميد جانب الجبل، وتتصل أبصار القوم بالرياح التي تتعثر في أدبار الخيل، ويتحسس كل منهم قلبه، متمنيا قصب السبق لصاحبه الذي هو من شيعنه، ثم.. تتدخل الآلهة في هذا اللهو البريء فتغير دفة المقادير، وتتحمس مينرفا للبطل العظيم ديوميد، حينما ينزع أبوللو السوط من يده ويلقى به إلى الأرض، فتعيده إليه، وتلحظ أن أبوللو يصنع هذا ليظفر يوميلوس ويفوز بالسبق، فتذهب من فورها إلى ابن ادميتوس وتنزع إحدى عجلتي عربته، فيهوى البطل ويوشك رأسه أن يتحطم على الجلاميد المتراكمة على جانبي الطريق.

وتعود الخيل..

وتخفق قلوب القوم.. ثم ينظرون فيرون ديوميد قد أنهى الشوط.. ونزل من عربته فصافح فونيكس، واستحق بذلك الجائزة الأولى.. وتلاه انتيلوخس، ثم منلوس الملك، ثم مريونيس، وكان أبطأهم.

وسكن القوم قليلا، وإذا هم يبصرون يوميلوس المقدام يسوق جياده، وخلفها عربته التي حطمتها مينرفا، فيثير مرآة قهقهة عالية وصحبا، لا يقطعهما إلا أخيل بصيحة راجفة تعيد إلى الملأ وقارهم، ويقضى ليوميلوس بالجائزة الرابعة «لأنه لولا الحظ العاثر لكان صاحب الجائزة الأولى!!»

وأشرأبت الأعناق حين أعلن أخيل عن دور الملاكمة.

وشارك فيها من الأبطال البيوس، فتى مفتول الساعدين مكتنز العضل، رحب الصدر، له قبضتان كأنهما حراشف جذور باردة من جذع شجرة، ألقت بها الريح في يوم عاصف، ونهض إلى جانبه شاب قوى بادی البأس، لم يلبث القوم أن عرفوا فيه يوريالوس بن

مُسَبْتُوس، الذى طالما شارك فى أولمبيات الملك أوديبيوس وكان أبدا فتاها وفارس حليتها.

وأعطيت الإشارة فانقض الأسد على الأسد، وارتطم الجبل بالجبل، ولبت البطلان يكيل أحدهما للآخر لكلمات كانت تقشعر لها أبدان الآلهة، وتنتفض من هولها أفئدة الرجال، ثم لاحت فرصة للبطل البيوس كال فيها لخصمه لكمة فى ذقنه^(١) فألقته فوق أديم الأرض بين هتاف الجند وضجيج القادة وبذا استحق البيوس الجائزة الأولى، وهى بغل أشهب مسرج، فى شذقيه لجام من الحديد، يتصل به عنان من الفضة، أما يوريالوس فقد أفاق من اللكمة القاسية لينال كأسين جميلتين أعدتا للفائز الثانى!..

وأرهفت الأسماع حين نهض أخيل يعلن عن دورة المصارعة التى لم يجرؤ أحد أن يتقدم إليها حتى أوشك زعيم الميرميدون أن يلغيها لو لم ينهض أوليسيز ويتبعه أجاكس متثاقلين!!

وأهطلت الرقاب ذاهلة نحو الزعيمين الهائلين، وشخصت الأبصار ترى إلى الجبل يأخذ بتلابيب الجبل، والبحر ذى العباب يصول البحر ذا العباب، والشهاب الراصد يندق على الشهاب الراصد، لا هذا ينال فرصة من ذاك، ولا ذاك يرى ثغرة ينفذ منها إلى هذا والقلوب فى أثناء ذلك تخفق وتخفق، والقشعريرة الباردة تشيع فى أصلاب هؤلاء، وهؤلاء! كل يتمنى أن يفوز رجله.. حتى ثارت عجابه حول البطلين انجلت عنهما صريعين فوق الأرض، لم ينل أحدهما من الآخر! فكان القضاء العادل من السماء!

وحاولا أن يعودا إلى صراعهما الأول، فحال بينهما أخيل.. لأن الدورة كانت لا تنتهى اذن.. فكان بحسبهما أن ينالا جائزتين متساويتين!!

(١) upper - cut

وبدا سباق العدائين، واشترك فيه أوليسيز وأجاكس أيضا، ثم انتيلوخوس الذى استطاع أن يفوز بالجائزة الأولى، لما كان يبدو على منافسيه من نصب، من جراء صراعهما السابق.

وتبع ذلك سباق المبارزة، وشارك فيه أجاكس أيضا، ثم ديوميد العظيم، الذى استطاع بعد لاي أن يجرح خصمه فى عنقه، فينبثق الدم من الجرح، فينال الحزام الفضى بذلك!

ثم كان حمل الأثقال وهو سباق يحبه الاغريق كثيرا، وقد شارك فيه يوليبيوتيس وايبوس وليونتيسوس.. ثم أجاكس! الذى فاز بالجائزة الأولى.

وتلا ذلك سباق الرماية، واشترك فيه البطلان تيوسيز ومريونيس، وفاز الأخير بأسنى الجائزتين للبراعة الفائقة التى أبدأها فى إصابة الغرض «وكان حمامة تنطلق وتنطلق.. حتى تكون خلف السحاب..؟!».

ثم كان سباق إصابة الغرض بقذف الرمح، وقد تقدم إليه قائد الحملة العظيم.. أجاممنون الملك.. ثم.. مريونيس الشجاع وأحد أتباع الملك ايدومنيوس.. وقد هال أخيل أن ينافس أحد قائد الحملة، فتقدم إليه معترفا بتفوقه على الجميع فى كل شىء، وقدم له الجائزة الأولى.. ثم قدم الرمح لمريونيس.. وكانت مجاملة طيبة من أخيل تقبلها الجميع بثغور باسمه.

بريام الحزين

تفرق القوم إلا أخيل..

لقد أوهنه الحزن، وشف قلبه الأسى، وكان
قتله هكتور لم يشف ما فى نفسه من شجو،
ولم يخفف عنه ما يلقاه من عذاب البعد عن أعز
اصدقائه.. الفقيد بتروكلوس!

وخرج لنبعض شأنه، فرأى جثة عدوه فى
طريقه، تثير فى نفسه الكوامن الشواجن، فينقض
عليها كالمجنون، ويشبعها ركلا بقدمه، وكلوما
بخنجره، ويربط القدمين فى عربته، ثم يلهب
جواده بسوط نغمته فتعدو كالريح حول قبر
بتروكلوس، جارة وراءها جثمان هكتور، تقلبه فى
الأديم المندى، وتلته فى التراب الهامد.

ويكون أبولو مطلا من سحابة سارية،
فينتابه من الهم على صديقه ما يثير فى قلبه
الحنان المقدس، ويلقى درعه الذهبى على القتيل
المهين، فيقيه الدرع من الصخر والحصى..

أما فينوس! فإنها ترف هى الأخرى فوق
الجثة، وما تنفك تصب عليها من خمر الأولمب
وما تنضح به من دماثها!! وطلائها^(١)

(١) الطلاء : هو دم القتيل.

وينجح أبوللو فى إثارة رحمة الآلهة، وتأليبهم على زعيم الميرميدون، وجعلهم صفا واحدا عليه، لولا أن نهضت حيرا مغضبة، فانطلقت تدفع عن أخيل. وتذكر سادة الأولمب بهذا المهرجان الفخم الذى أقامه بليوس أخوهم ونجيتهم هناك.. هناك فى أعماق المحيط احتفاء بقدمهم للمشاركة فى عرسه، وبنائه على ذيتيس المسكينة.. التى يعلم الجميع أنها ثكلى.. وإن لم تفقد أخيلا بعد!

وتذكرهم حيرا بالموثق الحرام الذى قطعوه على أنفسهم أن يباركوا نسل بليوس، وأن يدفعوا عنه الضرر.. حتى تنفذ مشيئة ربات الأقدار.

ويحار زيوس بين سخط الآلهة.. ودفاع حيرا، ثم يبدو له أن ينفذ رسوله الأمين «ايريس» إلى ذيتيس الحاملة فى أعماق البحر، فتوقظها وتلقى إليها برسالة السماء..

«.. ان هلمى من فورك هذا إلى سيد الأولمب. فإنه يأمر أن تسعى إليه فى مهمة تعرفينها فيما بعد».

وتنتفض الأعماق بالأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس البحر وعذارى الماء.. يسعين خببا فى أثر ذيتيس.. حتى يكن فى أفق جبل ايدا.. فينثنين.. تاركات مولاتهن فى ثوبها الحريرى الأسود، وزنارها القاتم تسعى وحدها حتى تكون فوق الثلج، ومن ثمة تعرج فى الأديم الأزرق حتى تلج أبواب السماء..

وألفت حشد الآلهة لا يزال يتحاور ولا يزال أبوللو يحاج حيرا، وحيرا تقرعه، حتى نظر زيوس فرأى ذيتيس تتهادى فى طيلسانها الأسود ووجهها المشرق المترع بالمفاتن يزيده الحزن روعة، ويضفى عليه الأسى جلالا..

فتبسم سيد الأولمب، واهتز فوق العرش، ثم قال : مرحبا ذيتيس! فيم هذا الأسى يا فتاة! أه.. مسكينة..! ولكن اصغ إلى : لقد دعوتك إلى الأولمب لقرعى برسالتى إلى أخيل العزيز، فتوصيه بجثة هكتور، لقد أثار بما ينزله بها من هوان غضب الآلهة جميعا.. بل لقد أثار غضبى أنا

أيضاً.. أنا حاميه ومنقذه ومرشده فى كل مثار نقع.. اذهبى إليه فأمره أن يقلع عن هذه المثلة، فإنه لا شىء يحقن الآلهة مثلها.. وليسلم القتل لأهله، فهذا خير له وليقبل القود العظيم الذى يقدمه إليه بريام الملك الشيخ الحزين.. الذى حطمه الرزء، وعظمت عليه البلية، وصدعت قلبه المصائب.. أما نحن.. فسننفذ ايريس إلى طروادة تأمر الملك بإعداد القود، والتجهز للقاء أخيل فى معسكره.. وسنرسل ولدنا هرمز إلى بريام يحدو ركبه إلى معسكر أخيل ويعمى أبصار الميرميدون حتى لا يثوروا به وحتى يكون أمام زعيمهم وجها لوجه».

«ذيتيس! حسب أخيل ما حل بابن بريام»

وهمت ذيتيس فانطلقت إلى ولدها، حيث الفتة يتناول وجبة الصباح، فأبلغته الرسالة الأولمبية وعيناها تفيضان بالدمع، وقلبها يخفق ويضطرب، ونفسها تذوب على شبابها الغض حسرات..

وهش أخيل لأمه، تقبل رسالة الإله الأكبر قبولا حسنا، فنهضت ذيتيس وعادت أدراجها، بعد إذ طبعت على جبين ولدها قبلة خاطفة، كانت... واأسفاه.. آخر وداع له منها فى الحياة.



وانطلقت ايريس إلى بريام الملك، فوجدته ما يفتأ يبكى هكتور، ومن حوله أبناؤه التسعة، خضراً كإفراخ القطا، نضراً كأكام الزهر، والرجل مع ذلك يقلب فيهم عينين تفيضان حسرة، ووجها يتشح باليأس والهم، وإلى جانبه جلست هكيوبا المرزاة تئن وتتفجع، وترسل من أعماقها زفرات الهم والأسى..

وبلغته ايريس رسالة ربه، وعادت أدراجها إلى الأولمب، وما كاد الملك يخبر زوجه بما أوحى إليه من ربه، حتى اضطربت هكيوبا وأعولت وطفقت تضرب صدرها المتهدم بيديها الضعيفتين لما اعتزم زوجها من تنفيذ ما أشارت به السماء، والذهاب إلى أخيل يرجوه أن يهب له جثمان هكتور، خشية أن يأسره زعيم الميرميدون ويستبقه

عنده رهينة حتى يسلم الطرواديون..!

ولكن الرجل كان مؤمنا لا يتسرب إلى قلبه الشك بما رسمت له الآلهة، ولا يساوره ريب فى أى مما تشير به أربابه، فزجر الملكة ونهض إلى خزائنه العامرة بالتحف، فتخير اثنى عشر قرطقا من أغلى ما نسجت مصر، ومثلها من المعاطف المصنوعة من القاقم والسنباب وعددا كبيرا من الوسائد الرائعة والطنافس ذات التصاوير، ثم أمر بعشر بدر فأحضرت من بيت المال، وبدستين كبيرتين من الذهب، ذوى قوائم من الفضة، وأيد من الجواهر، وبأربع قدور مهداة من ملوك الشرق، تزن أحداها ما يملأ خزائن بن بليوس ذهبا، وبكأس من الأبريز الخالص بها من النقوش والصنعة ما يعجز عن مثله عباقرة الجن.

أمر بريام بكل ذلك فوضعت فى صناديق كانت هى الأخرى تحفا من صناعات مصر والشام والهند.. تهيم فوقها تصاوير فارس.. وصاح بأبنائه التسعة فهرعوا من كل مكان.. باريس المشئوم وهيلانوس وأجاثون، وبامون وانتيفون وبليت، ثم ديفوبوس وهيوثوس وديوس.. كلاب الأزقة كما كان يدعوهم أبوهم.. «ليت المنية التى تخطف هكتور تلقفتكم وخلت سبيل هكتور.. أو ليتها أصابت ألف ألف من أمثالكم وعميت عن ليكاون وبوليدور..؟»

وأمرهم فصفوا الهدايا ورفعوها فوق ظهور البغال، وما ثقل منها وضعوه فى عربة كبيرة يجرها بهيمان، وتقدمت هكيوبا فصبت على يدي زوجها خمرا يطهر بها، وأخذ هو فى صلاة طويلة لزيوس.. أن يحميه ويوقيه.. ويرشده فى طريقه إلى أخيل، ويرسل إليه الرسول الذى وعد، يقوده إلى فسطاط زعيم الميرميدون!

ولم يكد ينهض من صلاته، ويختم توسلاته، حتى رف فوقه طائر ظل يضرب الهواء بخافقيه، ويحوم ويدوم، ويرنق فى سماء الهيكل تارة، ثم يستقر عند المذبح أخرى، حتى أيقن الملك وملؤه أنه الرسول المنتظر، والقائد المنشود، فخفقت قلوبهم، وفرحوا واستبشروا.

وتقدم ايديوس الحكيم فالجم البغل، وأسرج الخيل، وشد البهائم إلى عربة الملك، وأقبل بريام فركب، وأصدر أمره إلى حكيم طروادة وفيلسوفها، فسار بين يدي الركب، يحدوه ويباركه ويضمن له رعاية السماء.

أما الطائر الميمون فقد انتفض انتفاضة هائلة، وراح يخلق فوق طروادة وفيلسوفها، فسار بين يدي الركب يحدوه ويباركه ويضمن سلامته.

وتهادى الركب. وانطلق ايديوس يحدوه، حتى كان عند مقبرة اليوس الأكبر، وحتى كانت طروادة الخالدة وراءهم، حالمة في غبشة المساء، ساهمة مستسلمة، كالفكرة الشاردة في دماغ الشاعر الغرير.

وغابت الشمس في مياه الهلسبنت، واختلط البنفسج الشاحب بسواد الليل، ونقت ضفادع الأبالسة في فضاء البرية، فملأت القلوب وحشة، وأرسلت في المفاصل رعدة، فلم يكن بد من أن ينيخ القوم حتى يأذن القضاء بالرحيل.

وفيما كان ايديوس يسقى الدواب من الغدير النائم في كلة الغسق، إذ بشاب يافع يقبل نحوه ويسأل عن الملك.. ويكون بين يديه بعد لحظات..

ويسأله الملك عن شأنه فيحدث أنه جندي أبق من جنود أخيل، إنه ينصح للملك ألا يجازف بنفسه وبما يحمل من اللهى والعطايا في هذه الرحلة المهلكة، التي قد تنتهى بما لا يدور للملك في خلد، أو يقع له بحسبان، ولكن الملك يبدى تصميمه، ويلح في سؤال الشاب عن هكتور.. «ألا يزال مسجى بين أيدي أخيل يشقى بمראה جرده، أم هو قد أسلمه للسباع وجوارح الطير تنوشه وتتغذى به؟» ويطمئنه الشاب اللعاب الداهية ثم يرثى له فيعده أن يكون قائده إلى فسطاط أخيل.. «لأن أحدا من الناس لا يستطيع أن يخترق صفوف الميرميدون الدواهي ما لم يكن مخاطرا بنفسه أو ملقيا بيديه إلى التهلكة..»

ويستسلم الملك الشيخ، ويلقى فى يدى الجندى الشاب بزمائه ويأذن له فيمتطى الجواد الأمامى الذى يتقدم سائر الدواب وتبدأ الرحلة إلى مريض الميرميدون..

ويتحدث الشاب إلى الملك، ويتحدث الملك إلى الشاب.. حتى إذا كانا قيد خطوات من معسكر أخيل، مد الشاب ذراعيه المفتولتين ولفهما حول جذع الملك، ثم رماه رمية قصيرة، فلما سأله الملك عما يبتغى بها. أنبأه.. «كى لا تمتد إليك عين ولا يلمحك أحد، ولا يحس بمسرانا أى من أولئك الميرميدون..» فيسكن جاش بريام الشيخ، ويطمئن قلبه، وتتضاعف ثقته فى الجندى الشاب..

ويكون فسطاط أخيل تلقاءهما!

فينهض الشاب من جانب الملك، ثم ينتفض انتفاضة تكشف عن حقيقته، ويقول ضاحكا : «أيها الملك أنت الآن فى جوار أخيل، وعليك أن تلقاه فى غير هيبة ولا وجل، فادخل غير مستأذن، ولتكن رابط الجاش ساكن الروع واركع بين يديه ثم أدرف أغلى دموعك حتى تلين ما قسا من قلبه، وتحجر من مشاعره، واذكر له حاجتك فإنه زاد عليك جثمان هكتور.. وثق أن السماء قد قضت بذلك، ولا مرد لقضائها.. أما أنا فلا تنتظر أن أسعى بك إلى زعيم الميرميدون. وليس سرا أن أذكر لك أننى.. هرمز.. قد أرسلنى أبى إليك لأجىء بك إلى هذا المكان.. انهض.. انهض.. ماذا أخافك منى، أجل، أنا ربك، ولكن لتقصر صلاتك هذه فالفرصة تكاد تفلت تشجع يا بريام.. قف.. أمرك..»

وينهض الملك من غشيته التى كادت تذهب به حين ذكر له الشاب أنه هو هرمز.. هرمز نفسه الذى ذكرت له ايريس أنه سيقوده إلى فسطاط أخيل..

وينظر بريام فيرى الجندى الشاب يرف فى الهواء المندى، ثم يرتفع ويرتفع، حتى يكون فى السماء التى تتفتح له أبوابها؟! ويصلح الملك من شأنه، ثم يتقدم بخطى وثيدة إلى فسطاط أخيل،

ويدخله.. ويرى زعيم الميرميدون فى الصدر، وبين يديه وزيراه
العظيمان أوتوميدون والكي موس، ثم قادة الجند منتشرين ههنا وههنا..
يهمسون ولا يكادون يبينون..

وكان السباط لا يزال أمام الزعيم، وزقاق الخمر لا تزال تقبل
الكؤوس المفعمة، والشواء العظيم يملأ الخياشيم بقتاره.. فلم يبال
بريام.. بل تقدم وتقدم، حتى كان أمام أخيل.. فركع ذاهلا عن نفسه،
ولف ذراعيه حول ساقى الزعيم، وراح يوسعهما لثما وتقبيلا،
ويمطرهما بأحر العبرات!

وشده أخيل!

بيد أنه كان يعلم من أمر هذه المفاجأة كل شيء، فلم يزد على أن
قال :

- «بريام؟!»

- «أجل يا بنى، أنا بريام!..»

وبهت القادة مما رأوا، وأذهلهم ما سمعوا!

أهذا حقا هو بريام ملك طروادة يبكى بين يدى أخيل وينتحب؟ اذن..
فيم هذه الحرب؟.. وحتام ذلك الصراع.. وآلام تذهب هذه المهج؟

- «أجل يا بنى.. أنا هو.. أنا الرجل المرزا المحزون الذى قتلت
أبناءه، وأهرقت دماءهم لأنهم يحاربون من أجل وطنهم، ويذودون عن
بلادهم.. سعيت إليك.. إليك يا أخيل العظيم، لأمطر هذه اليد التى
ذبحتهم بدموعى، ولأوسعها لثما وتقبيلا؟!»

أتمنى يا بنى أن تعود قريبا إلى أبويك سالما، فيهش أبوك للقائك،
وتبش أمك بعودتك، ويفرح ذوك بك لأنك عدت إليهم بالنصر والفخر..
استغفر الآلهة.. بل عدت إليهم سالما من نكبات الحرب وكوارثها.. فهل
أكون قاسيا أن أرجوك.. حين تعود إلى ديارك وتلقى فيها أحباءك.. أن
تذكر أن أبوين آخرين قد خلفتهما وراءك يشقيان ويبكيان، ويلبسان

السواد أبد الدهر. لأن ابناهما لم يعودوا من ساحة الحرب كما عدت أنت، بل هم قد سقطوا فوق أديمها، مخرجين بدمائهم، شاكين إلى أربابهم ما حل فيها بهم. تاركين آباء شيوخا فانيين، وأمهات ضعيفات معولات. وقلوبا تتفجر أسى عليهم، وعيوننا تختلط دموعها بدمائهم من أجلهم، وأرامل يلطمن الخدود ويشققن الجيوب.. ويتامى لا حول لهم ولا قوة على الزمان الغادر، والحظ العاثر، والصبر الجميل..؟

أرجوك فى هكتور..

وأحر قلباه يا هكتور..! وا أسفاه عليك يا ولدى!

صدرت إليك يا أخيل من أمر السماء أرجوك فى هكتور أن تسلمه إلى حتى تؤدى له فرائض الآلهة، وطقوس الموت، وما أحسبك إلا ملييا ندائى الحزين، حتى تتيح للآلاف من جنوده وذويه وزوجه وابنه أن يبكوه جميعا، وأن يشيعوه إلى الدار الآخرة بما رضيت أن تؤديه لبعض أصحابك، حتى تقر روحه، ويؤذن لها فتلج إلى هيدز..

أخيل.. لب ندائى أيها الزعيم الباسل.. لب نداء هذا الشيخ الضعيف.. وارحم فيه هذا الذل الذى حمله إليك.. واسعده بتقبل هذه الهدية التى أمرت بها السماء..

وإن كنت يا أشجع المحاربين فى غناء عنها. ولا حاجة بك إليها.

وأحس أخيل كأنما تخاطبه السماء كلها بلسان هذا الشيخ المتهم، وكأنما الآلهة جميعا تنطلق من فمه لتكون بيانا ورحمة فى قلبه، فانهضه من بين يديه، وأجلسه إلى جانبه فوق أريكته، ثم أخذ معا فى بكاء حار طويل.

وتقبل أخيل هدايا الملك، وأشار إلى أتوميدون وزميله فأخذاها إلى الأسطول، ثم أمر الخادمت فغسلن هكتور بالماء الساخن المعطر بدهن الورد، ولفقنه فى مدارج بأكملها من كتان مصر، وتقدم هو فوضعه على وسادة الموت، وأشار إلى جنوده فرفعوه إلى أرائه، ثم أخذ يهون

على بريام ويواسيه، ودعاه إلى تناول العشاء معه، فلبى الشيخ وهو يعول وييكى.. بكاء يفتت الأكباد ويذيب نياط القلوب..

وكان الليل قد انتصف أو كاد، وكان بريام الملك قد لبث الليالى الطوال يتفجع على ولده، ولا يذوق جفنه طعم الكرى، فأحس بعد العشاء بإعياء وجهه، وميل شديد إلى النوم، فصفت له ولرجاله وسائد فاخرة، عليها طنافس وملاءات من الهند، واستأذن أخيل فاستلقى على متكئه.. وقبل أن يسلم عينيه للكرى سأله أخيل أن تكون هدنة بين الجيشين المتحاربين حتى تؤدى كل الطقوس اللازمة لحرق هكتور، واتفقا على أن تكون هذه الهدنة لمدة أحد عشر يوما.

وفى الهزيع الأخير من الليل، أقبل هرمز الكريم فأيقظ بريام الملك، ونبهه إلى الخطر الذى يحيق به إذا أشرقت الشمس وأقبل أجاممنون وسائر القادة الهيلانيين ورأوا كبير أعدائهم، وصاحب اليوم، فى معسكر أخيل.. هنالك يحجزونه لديهم رهينة حتى تسلم مدينته.. «فهل أمها الملك وانج بنفسك، وسأقودك إلى طروادة بحيث لا يشعر بك أحد، ولا يحس الميرميدون لركبك ركزا».

ويسير الركب فى هدأة الفجر، ويحدو هرمز القافلة حتى تكون لدى البوابة الاسكائية الكبرى، فيسلم على الملك ويبارك الميت.. ويعرج إلى السماء..

وتكون كاسندرا، ابنة بريام الكبرى، أول من يلمح الركب مقبلا فتبشر الأهالى المحزونين، ويرتفع اللغط، وتشتد الضوضاء، ويتككب المواطنون حول العربة التى تحمل الأران حتى ليتعذر السير ويبطئ السعى فيصيح الملك بالملأ فتتفرج الطريق، ويعم الصمت ولا يحس إلا وجيب القلوب وخفقانها.

وتقبل أندروماك فتذرى دموعها، وتندب حظها، وتبكي زوجها، وتمزق قلوب الطرواديين مما يذيبها من أسى وحزن، ووجد وكمد.

وأم هكتور.. ويا لمصاب الأمهات فى فلذات أكبادهن، وأعز الأبناء
عليهن!!

وهيلين!! والعجيب أن تبكى هيلين هى الأخرى! هيلين الأبقه، هيلين
الأثمة...!!



ويأمر الملك فينتشر الجند يجمعون الوقود من كل فج، حتى تكون
كومة عالية، ويوضع الجثمان المبكى فوقها، وتصب الخمر تحية لإله
الموت وتكرمه، وتشتعل النار ضراماً^(١).



انشد يا هوميروس!
يا شاعر الأحقاب الخالية!
أيها القيثاره المرنة فى أنامل الأيام!
أرسل من الأزل انشودتك تملأ أسماع الأبد!
واعصف مع الريح..
واهتف مع البلابل..
وتقبل تحيات المعجبين..

(١) وهكذا تنتهى الياذة هوميروس بتحريق هكتور.

مقتل أخيل

انتهت الهدنة، واندلعت نيران الحرب كرة ثانية، واقتحم الجمعان توجج العداوة بينهما ثارات وثارات، ولم يجد الطرواديون أن تنضم إليهم مليكة الأمازون تحارب بفصائلها في صفوفهم، وتشد بجموعها أزرهم، فإن أخيل هو لم ينقص ولم يزد.. بل هو يزيد كل يوم ظمأ إلى دماء قاتلى صديقه وأحب الناس إليه.. بتروكلوس الشهيد.

لقد انقض أخيل على مليكة الأمازون التي انقضت بدورها على جحافل الهيلانيين فأوقعت الروع في نفوسهم، وقذفت الرعب في قلوبهم.. فلم يزل بها يصاولها ويطاولها حتى نهز منها نهزة انفذ بها رمحه في صدرها، وعفر جبينها الملهب بثرى المعمة، وجردها من سلاحها فإذا هي جثة هامدة، وانكفاً اتباعها وبهم من الحزن على صاحبة الأمر فيهم.. ما صرفهم عن طروادة والطرواديين.

وأن أخيل ليصول في الميدان ويجول، وأنه ليرتفع بصره عفواً، وعن غير قصد، إلى البرج الشاهق من أبراج اليوم، فوق البوابة الإسكائية، إذ هو يلمح قمراً مطلاً من شرفة البرج يرنو

بعينى ظبى، يهطع بجيد رثم، ويشرق بخدين ناضجتين من خدود
ربات الخدور، يرسلان على الساحة كلها سناء ورواء..

من هى ؟

من هذه العذراء البارة التى تشرف هكذا على الساحة الحمراء
فتطفئ جذوات الغل المتقدة بين أضلاع أخيل، وتضع حدا لهذه الثورة
التي ظلت إلى تلك اللحظة تعصف بنفسه الغضبية، وتحز فى قلبه
المحزون؟..

أوه..!! إنها الأميرة الفاتنة بوليكسينا، صغرى بنات الملك الشيخ..
بريام البائس الباكي الحزين..

لقد أرسلتها العناية لتشرف على الساحة الصاخبة، ولتنظر إلى هذا
البطل الخرافى الجبار الذى لم يعد بيت فى طروادة كلها إلا وفيه لسان
يلهج بذكره، ويتحدث عن شجاعته، ويصف جبروته.. ثم لم يعد بيت
فى طروادة كذلك، إلا وفيه عين مؤرقة تبكى على عزيزها الذى قتله هذا
البطل، أو الذى سيقته، أو الذى يخشى عليه أن يقتله. كأنه أصبح
سفير هيدز إلى اليوم، أو وزير بلوتو العظيم فى هذه الدار!!

وأبصر أخيل بها.. ويالها من نظرة أنبتت فى قلبه دوحه من الحب
وارفة، ذات ظلال وذات أفياء..

وظل الرمح يهتز فى يده.. ولا يصيب أحدا.. وظل هو يسارق النظر
قمر البرج المطل مشدوها مسبوها.. لا يعرف لماذا شبت هذه الحرب،
ولماذا يقتتل هذان الجمعان؟!

وانثنى من الميدان ينظر فى هذا الغرام الجديد..

ولم يجد بدا من العمل لإحلال السلام محل تلك الحرب التى طالت
وتتابعت عليها السنون، من غير أن يظفر الهيلانيون بالطرواديين، أو
الطرواديون بالهيلانيين، ومن غير أن يفكر أحد فى هذه المجزرة
الشائنة التى تغتذى كل يوم بقطوف الشباب من زهرات الأمتين على
السواء.

فيا له من حب مهد لسلم، لولا قساوة فى القلوب زادتھا الثارات
عنقوانا. ولولا شرف أمة بأسرها تعبت به امرأة، ولولا الاحن التى
ذهبت بأبناء الملوك الصيد.

واستطاع أخيل أن ينفذ رسله إلى بريام يستعته، ثم استطاع
الرسل أن يخاطبوا الملك فى بوليكسينا على أن تكون أحب أزواج أخيل
وأثرهن إلى قلبه، فوعدهم الملك، بعد أن لحظ من افتتان ابنته هى
الأخرى بزعيم الميرميدون، أن تتم مراسيم الزواج حين تضع الحرب
أوزارها، وحين تنكشف هذه الغاشية عن طروادة..

بيد أن الهوى المبرح قد ألح على قلب أخيل، والصبابة العاتية قد
جمعت أفانين من السهاد فى عينيه، وطيف بوليكسينا يراوحيه ويغاديه
ويملاً عليه أمانيه، ويتهادى أمامه فى كل نظرة ينفرج عنها هدبه، أو
غمضة تتناعس بها جفونه! فلم يطق إلى صبر من سبيل!

وأنفذ رسله كرة أخرى فاتفقوا مع الملك على اجراء مراسيم
الخطبة، عسى أن تقل من غرب هذه الحرب القاسية، أو تبرز منها
تباشير السلام المنشود!

وأعلنت هدنة ليوم أو بعض يوم، وأقيم المهرجان الفخم فى صميم
الحومة الرائعة، وتقدم أخيل فصافح الملك، وأعلنت الخطبة، وانثنى
الزعيم العظيم وقلبه يكاد يطفر من الفرح، أن أصبحت له بوليكسينا..

وما كاد البطل ينقلب إلى جنده، حتى كانت فينوس توسوس إلى
باريس أن ينتهز الفرصة العزيزة النادرة، ويريش سهماً من سهامه
المسمومة إلى عقب أخيل التى لم تغمرها مياه ستيكس فيصيبه.. فيرديه!!

ووتر باريس قوسه، وأرسل السهم المسموم إلى عقب أخيل فنفذ
فيه، وأنفذ فيه قضاء ربات القضاء.. اللاتى فرغن الساعة فقط من غزل
خيوط حياته، وقطعته أتروبوس^(١) الهائلة بمقصها الجبار الفظيع. وهكذا

(١) أشرنا إلى ربات القضاء سالفاً - ومن ثلاث :

١ - كلوترو وتنسج خيوط الحياة.

٢ - لآخسيز وهى تبرمها حتى تحتل عابيات الزمان.

٣ - وأتروبوس وهى تقطعها فتنتهى الحياة.

أنهى باريس الخائن تلك الحياة الحافلة بغدرة سافلة من غدراته التى
توشك أن تنتهى!

واستطير الميرميدون! وانقض أوليسيز كالعاصفة ينافح عن جثمان
صاحبه، واستطاع أن يستنقذ القتل العزيز من أيدي أعدائه الجبناء،
وكان أجاكس العظيم يعاونه فى دفع الجموع الحاشدة التى تكاثرت
حول الجثة تطمع فى عدة فلكان.

وانصرف الجيش الحزين يذرف دموعه على أخيل!
ووقفت ذيتيس تلقى على ابنها نظراتها الأخيرة.. وتذرف عليه
دموع الوداع!

وكانت ثيابها السود تبكى معها..

وكانت السماء تذرف شجونها على أخيل..

وعرائس البحر ساهمات على شواطئ الهلسبنت الفائض بالدم!

وبليوس المحزون يضطرب فى الأعماق فيجعلها ضراما!

والأولمب كله، إلا عصابة فينوس يعزى بعضه بعضا.

وليس أولئك جميعا شيئا إلى ما حدث من بعد، قبيل أن تخدم
النيران فوق أخيل.. فقد ضج المكان الصامت بصيحات مفاجئة، نبهت
ما سكن من هول هذا المحشر الرهيب.. وتلفت القوم ، فإذا أجاكس
العظيم قد أصابه طائف من المس، وإذا به يرغى ويزبد، ويعول
وينشج، ثم يقذف من فمه صبيبا من الدم، يثله شوب من العلق،
وينبطح على الأرض ثم يثب على قدميه، ويروح ويغدو دون أن يلوى
على شىء.. ثم يستل جرازه ويركزه فوق الأرض، ويتكى ب صدره على
سنانه، فينفذ السنان من ظهر أجاكس، ضحية جديدة لهذه الحرب التى
لا تشبع، وخيط حياة حافلة يمر وشيكا بين الشفرتين فى مقص
أتروبوس!..

ويحك أجاكس! وللآلهة ما وفيت لأخيل يا بطل الأبطال!

وذهل القوم لانتحار أجاكس، ولم يفيقوا من ذهولهم إلا ليروا
مأساة ضعفت ما أبقي عليه الحزن من ألبابهم، وأطاشت ما بقى من
حلومهم، وتركتهم سكارى وما هم بسكارى..

وهذه بوليكسينا!

إنها تقبل من طروادة كأنما بها مس..

وهى تطوى الساحة المزدحمة بالأشلاء.. المضرجة بالدماء، بقدمين
عاريتين، لا يقيهما حذاء.. وإن الدم ليتفجر منهما..

وهى تصرخ.. وتضرب خديها الشاحبتين، بكفيها الواهيتين. وهى
تجفل كالظبية المراعاة، وتدور حول نفسها.. ثم تقف لحظة.. وتنطلق..

وهى تفعل هذا حتى تكون أمام البركان الخافت، المشتعل على
رفات أخيل..

وإنها لتقف تلقاءه جامدة كأنها دمية.. ذاهلة كأنها تمثال..
يا للهول!!

لقد انطلقت الفتاة فخاضت النيران.. ودست رأسها فى جمرات
الغضا تبحث عن حبيبها المرجو.. وزوجها المؤمل.. عن أخيل^(١).

أخيل الجبار.. قاتل ليكاون وبولييدور.. وهكتور.



ويجزع الهيلانيون مما ألم بهم من مقتل أخيل، وانتحار أجاكس
حزنا عليه، فينصرفون عن الحرب إلى استيحاء آلهتهم، وينفرد
كالخاس يرسل نظرة فى النجوم، ويناجى سكان السماء، ثم يقبل على

(١) اختلفت المصادر فى انتحار بوليكسينا، فبعضها يرويه كما أثبتنا، وبعضها يزعم أنها انتحرت
على قبر أخيل، والبعض يروى أن بيروس، ابن أخيل، قد انتزعها من حضن أمها هكيوبا وجعل منها
قربانا على قبر أبيه عقب فتح طروادة.

القادة وقد فرغت قلوبهم من الصبر، وتبليت أفكارهم من طول الانتظار.. فيقول : «سهام هرقل!! لابد من سهام هرقل! لن يفتح عليكم طروادة إلا سهام هرقل!».

سهام هرقل؟؟ وما سهام هرقل هذه؟؟

آه! لعلها هي هذه السهام التي غمسها هرقل في دم هيدرا^(١)

فتسممت به، وادخرت من الموت ما يكفي لإبادة الطرواديين جميعا.. ولكن أين هي هذه السهام اليوم! وأنى للهيلانيين أن يهتدوا إليها؟

جلس القادة يفكرون..

وذهب العرافون يقلبون صحف الغيب..

وطفق مشايخ الجند يفتشون في زوايا أدمغتهم..

ثم تذكر أوليسيز، بعد لآي، أن هذه السهام المنشودة قد تركت مع الجندي القديم فيلوكتيتس^(٢) الذي غادره الجيش فوق جزيرة لمنوس، في طريقه إلى طروادة.. فجر الحملة.. منذ عشر سنوات!

ولقد كان فيلوكتيتس قد أصيب بجرح كبير في قدمه جعل اصطحاب الحملة له من المحال، لما كان يلقي حينذاك من الآلام المبرحة، وما كان يملأ به آذان الجند من الصراخ والأنين.. فاضطر أوليسيز إلى تركه في جزيرة لمنوس، حيث أوى الجندي المسكين إلى كهف منعزل عكف فيه على جرحه يعالجه.. دون جدوى!

واتفق القادة على أن يذهب أوليسيز، مصطحبا معه بيروس بن أخيل «أونيوس بيلموس كما كانوا يسمونه أحيانا» إلى جزيرة لمنوس

(١) نشرنا هذه الأسطورة في كتاب أساطير الحب والجمال عند الإغريق «مجازفات هرقل» ج ١.
(٢) اعتمدنا في تلخيص هذا الجزء من ذلك الفصل على ترجمة سوفوكليس الخالدة فيلوكتيتيس Philoctetes ترجمة لويس كامبل.

ليريا هل الجندي الجريح مازال يحيا هناك، وقد بحثا عنه في أنحاء الجزيرة حتى عثرا به يئن في كهفه ويتوجع، ويشكو إلى غير مسمع، فعرضا عليه أن يصحبهما إلى طروادة فأبى، وجعل يشتد في الاباء يذكره هذا اليوم الأغبر الذي آثروا فيه تركه فوق تلك الجزيرة القاحلة لا أنيس ولا سمير، ولا لسان يرفه عنه وحشة الألم ووحشة المنفى الذي لا يد له فيه، وكبر عليه أن ينطلق مع هذا الجيش الذي جحده وغمطه حق الجهاد في سبيل الوطن، والذود عن شرف هيلاس واسمها المقدس..

وتركه أوليسيز لبيروس يأخذه بالحيلة والرفق.. ولكن بيروس لا يستطيع أن يقنع فيلوكتيتس.. فيكاد يدعه برما متسخطا.. لولا أن يظهر طيف هرقل فجأة مرفرفاً في العلو، فيأمر فيلوكتيتس، بعد تهوية هنا وتهوية هناك، أن ينصاع لما يأمره أوليسيز به^(١).

ولا يسمع الجندي الكريم إلا أن ينطلق مع أوليسيز.. فيركب الجميع في السفينة إلى طروادة، ويلقاهم العسكر المشتاق بالبشر، ويهرع إليهم بالآيناس!

أليس في سهام هذا القادم الأعرج.. النصر كل النصر؟!



ونفخ في صور الحرب، واشتجرت الأسنة، واستحر القتال، وتبوأ فيلوكتيتس مقعدا للرماية لا يبصره فيه أحد، في حين يبصر هو منه كل ما في الميدان!

وراش سهامه، وتطايرت المنايا عن قوسه المرنان! وسعت إلى الطرواديين مصارعهم تهددها سهام هرقل، وتمهد لها يمين فيلوكتيتس!

ومرق سهم منها إلى باريس!

وكان يشرف على المعركة من أسوار اليوم!.. فوق يتشخط في دمه،

(١) هذه رواية سوفوكليس ويقول هوميروس أن هرقل زار فيلوكتيتش في المنام وألقى إليه هذا الأمر.

ويغص بريقه، ويصرخ من الألم الذى يسرى فى عروقه مع الدم!..
 واجتمع حول باريس أبوه وذووه وعشيرته.. وهيلين!..
 وطفق الجميع يبكون فى باريس أخوته، والذكريات السود التى
 أقبلت من كل صوب ترف فوقه وترنق على جبينه.
 وأخذ الألم من باريس مأخذه.. وراح المسكين يصرخ ويتلوى.. غير
 أبه لما تغرقه به هيلين من قبلات دنسة، ودموع مسمومة، كانت الويل
 كل الويل على طروادة والطرواديين.

وذكر، وهو يتجرع غصص العذاب، أن حبيبته الأولى وزهرة صباه،
 ووردة حبه القديم، أيونونية، كانت قد ذكرت له أنها تعرف من خواص
 الأعشاب المختلفة ما يشفى أقله أشد أوجاع الجروح وانكاهها، فأشار
 إلى بعض أهله، وطلب إليه أن يذهب إلى سيف البحر، عله يجد
 أيونونية، فإذا لقيها فليخبرها بما انتهى إليه «حبيبها» باريس، والآلام
 التى تعذبه وتشقيه، من جراء جرح هذا السهم المسموم.. بيد أن
 أيونونية التعسة.. أيونونية المعذبة.. أيونونية التى أخلصت لباريس
 الحب حتى عبدته.. ذكرت ما كان من هجر هذا الحبيب وقلاده، وذكرت
 دموعها التى ذرفتها مرة تحت قدميه ضارعة متوسلة.. وتلك القسوة
 التى كافأها بها لما أن خدعته فينوس.. وأوقعته فى أحبولة هيلين..
 فرفضت فى إباء وشمم أن تذهب إليه.. والآلهة وحدها تعلم مقدار
 ما كانت تكنه له برغم هذا الرفض من الحب النقى.. والصبابة الحزينة..
 والهوى المتأجج المشبوب!
 وقضى باريس نحبه!..

وأعدت النيران الضخمة لتحريقه، فما هو إلا أن أشعلت من حوله
 حتى شوهدت أيونونية المبتولة تخرج من لجة الهلسبنت وتعدو، كأن
 قد أصابها مس، حتى تكون تلقاء النار.. فتقف باهتة.. وتتهد طويلاً..
 وتقذف بجسمها الجميل المرمرى الممشوق فى اللهب.. وتصرخ
 صرخة مشجية.. و.. وتنتهى قصة حبها الباكي الحزين..
 وهكذا تخط بيدها آخر سطر فى كتاب باريس..

فتنسية

طروادة (١)

لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على
الطرواديين، ولم تبرح المنايا تتخطفهم.. ولكن
المدينة ذات الكبرياء ما برحت أمنع من عقاب
الجو على الغزاة الجبارين..

وذهب كالخاس عراف الحملة، إلى آلهته
يستوحىها، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش
فذكر لهم أنه ما دام تمثال مينرفا المقدس..
البلاد يوم المشهور، في طروادة فلن يفتحها
على أهلها فاتح، ولو عاونته الأرباب جميعا!

وانطلق أوليسيز، وانطلق معه ديوميديز،
فتنكرا، واحتالا على حارس البوابة الاسكائية
الكبرى ففتحها لهما، وذهبا قدما إلى هيكل
مينرفا.. وسرقا البلاد يوم المقدس، وعادوا به،
وكل مهمما أن تبطل نبوءات العم كالخاس، التي
أخذت تترى، ويأخذ بعضها برقاب بعض..
وكبرت الأيام.. ومع ذلك لم تفتح طروادة! ثم

(١) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل على ملحمة فرجيل الخالدة
The Aeneid ترجمة فيرفاكس تالمر «طبعث دانث» ورجعنا كذلك إلى
درامة يوربيدند المسمتة The Trojan Women ترجمة جلبرت موري
النثرية وترجمة ر. بوثر الشعرية مع ما بين الملحمة والدرامة من
فروق محتفظين بروح الأسطورة.

بدا لأوليسيز أن يصطنع الحيلة..

فعرض على زعماء الحملة أن يدعى مهرة النجارين والمثاليين فيصنعوا حصانا هولة كبير الحجم.. خاوى الجسم، فيكون بداخله جمهرة من أقوى شجعان الهيلانيين وأبسلمهم، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة، فإذا مضى شطر من الليل، وأقبل الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكارا لهذه الحرب الضروس التي أكلت أخضرهم، وأحرقت يابسهم، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم.. ثم إذا كان الهزيع الأخير من الليل.. خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب اليوم، وانقض الجيش المرابط، فاحتل المدينة العاتية التي رغمت تحت أسوارها أنوف، وذلت جباه، وذابت أنفس، وذهبت أرواح، دون أن ينال منها أحد..

وطرب القادة لهذه الحيلة التي بدهم بها أوليسيز وانصرفوا عن القتال وهم. له كارهون.. وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم، ورابطوا داخل صياصبيهم، ومهرة النجارين وكبار المثاليين داثبون على حصانهم الهولة حتى فراغوا منه..

وأقلع الأسطول..

وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذي لبث ينوء فوقها عشر سنين..

واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون وعلى رأسهم بيروس النجيب، ابن أخيل الخالد، وعصبة قوية من فرسان الاغريق البواسل.

ودق الطرواديون البشائر..

وجاءوا يهرعون إلى الساحة، ويتككبون حول الحصان الهولة، ويكلمون سينون الذي تركه الهيلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين ولينصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون آخر الدهر تذكارا

لهذه الحرب التى شنّها قومه على طروادة ظلما، فبأءوا منها بالبوار.

«.. هؤلاء الهيلانيون اللؤماء، الذين انصببت عليه أحقاد الآلهة، وثار عليهم كبير الأولمب وسيدّه الأعظم، وسلطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم لولا أن أمروا بتضحية قربان بشرى ينجيهم من غضب السماء.. ولكن؟.. من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولمب؟ لقد جبنوا جميعا! ولم يشأ واحد منهم أن يضحي بنفسه لينقذ الجميع، حتى أوليسيز نفسه، هذا الداهية المغفل! لقد جبن هو أيضا! وفى الوقت نفسه حاول أن يرغمنى أنا ! أنا سينون المسكين، على أن أقبل التضحية، وأن أهب دمي للآلهة لتهدأ ثورتها.

ولكنى رفضت فى شمم، وامتنعت فى إباء.. لا خوفا من الذبح ولكن ضنا بدمى النقى الطاهر عن أن يهرق فى سبيل هؤلاء الجبناء.. الذين تكأكأوا وفزعت نفوسهم من صيحة السماء..!

وهربت يا مولاي؟ يا مولاي بريام العظيم؟.. ولذت بظلال طروادة الخالدة، طروادة المنيفة القوية، وجعلت أصلى لأربابى حتى استجابت لى، وأرسلت إليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقلعوا هذا المساء!.. قاتلهم سيد الأولمب! وقاتلهم الآلهة جميعا!

والآن!.. ها هم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذى أعدوه ليوم نصرهم، فجعلته الآلهة آية فشلهم!.. انقلوه يا مولاي إلى المدينة، واجعلوه تذكارا لهذه النوبة الجنونية التى شنوها عليكم، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون.. إلا فليكن قربى لمينرفا!..

لقد سمعت هاتقا فى صلاتى يقول «... الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر، تنقض عليه رجوم السماء، وتخسف من تحته الأرض، وتميد من فوقه الجبال!.. وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به!.. اذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادي الأيام...».

وكان سينون الداهية يمزج كلماته بدموع الصلاة والورع، ويشعل فيها جمرات الاخلاص والصدق.. وكان يرسل آهاته من الأعماق.. حتى

استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك، ويستولى على مشاعر الطرواديين، وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون، راهب نبتيون الأكبر حين نصح ألا تجوز عليهم هذه الكلمات المعسولة، والنفثات السحرية التي يتلجلج بها لسان سينون، وأن يدعوا الحصان مكانه «فإنه إن يدخل طروادة جلب عليها الشر وكان فال السوء للضحايا والشهداء.. ولا تصدقوا أن الهيلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمة لنبتيون كما يهذى هذا الأفاقي المأفون، بل هم قد صنعوه حيلة منهم لغرض سييء.. وها هي ذى ابنتك أيها الملك.. كاسندرا العزيزة فاسألها.. فإن لديها سر السماء».

وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون.

ولكن.. من يصدق كاسندرا ولا تزال نقمة أبوللو تنصب فوق رأسها.. وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزىء، وضحكة كل ساخر لعاب..

وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون، حين رأوه تفترسه حيتان عظيمتان على سيف الهلسبنت إذ هو يقدم قربانه لربه نبتيون فتقتلانه وولديه، عقب تحذيره الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشئوم وألا يدخلوه مدينتهم!

وتعاون الطرواديون جميعا فجروا الحصان الهولة، وهدموا بأيديهم جزءا كبيرا من سور اليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل، فكانوا كالتي نقضت عزلها انكاثا..



وكان الأسطول قد اختبأ فى ظلال الأيك النامى فوق جزيرة تندوس، فلما كان النصف الثانى من تلك الليلة الخرافية الحالكة، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذى يسبق القضاء الصارم عادة فى مثل هذه الأحوال، هب سينون الخبيث ففتح الباب السرى الذى لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان، وخرج الأبطال فقتلوا الحراس

النائمين لدى الأبواب، وأشعلوا النيران، قرأها الجنود الذين عاد بهم الأسطول فى دجى الليل، فانطلقوا سراعاً إلى «اليوم» الخالدة.. المستسلمة.. فدخلوها.. وأعملوا السيف، وشرعوا الرماح، واستباحوا المدينة، وهتكوا الأعراض النقية، وأحلقوا حرمة الهياكل، وأضرموا النيران فى القصور، وأتلفوا الحدائق الفيانة، وهشموا تماثيل الآلهة فى الميادين العامة، وقتلوا الصبية والأطفال، وجعلوا المدينة أطلالاً!

وهكذا، وفى سكرة الليل، وهداة الظلام، تم للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة العتيدة، وهبت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرجة بالدم، مبلطخة بالإثم، حافلة بالذكريات، غارقة فى الدموع.. تشهد الفتح المجرم، وترى المأساة الظالمة فى آخر فصولها!

وكان إينياس اليافع بن فينوس الهلوك من انخيسين، فتى طروادة وأميرها الجميل ذو القسمات، يغط فى نومه العميق، ملء سريره الذهبى الوثير.. مطمئناً آمناً.. لا يدور بخلده أن تحل الكارثة باليوم فى هذه الغفوة من الفجر..

وكان إينياس محبباً إلى الآلهة.. ولم يكن قد جاء أجله بعد.. فأرسلت إليه ربات الأقدار طيف هكتور يزوره فى نومه، ويريه حلماً مفزعاً.. وينذره. أن هب يا إينياس فقد سقطت طروادة، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك، واستنقذ التحف المقدسة والآثار العلوية.. فقد دنسها الفاتحون!..

وذعر إينياس، وهب من نومه لهفان صعباً.. وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروعة فشهد المأساة تحل بها..

وهاله أن يرى الوحوش الضواري من بغاة الميرميدون، وغزاة الهيلانيين يسوقون أتراب طروادة وبيض خدورها المكنون. عاريات أو نصف عاريات.. إلى الأسطول.. ليكن اماء فى بيوت هيلاس.. ورقيقاً فى أسواقها؟!..

وكاسندرا؟ كاسندرا نفسها! ابنة بريام الملك.. حبيبة السماء

وصفية الآلهة! التي حذرت أباهما يوما من قبول باريس.. أن يحل البلاء
بالمملكة وينزل الشؤم بالناس! ها هي ذى مسوقة فى قبضة أجاممنون
نفسه.. أجاممنون سيد القوم وقائدهم العام إلى.. سفينته!

وفكر اينياس، فلم يجد لانتقاذ المدينة وأهلها من سبيل... فأشار إلى
بعض رجال قصره فقتلوا نفرا من جند الاغريق المتخلفين عن الجيش
الغازى، كانوا مشغولين بالسلب والنهب فى متجر قريب، ثم نزعوا
عنهم ثيابهم فلبسها اينياس وصحبه ليستخفوا بها عن أعين المغيرين،
وانطلقوا إلى القصر الملكى، وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك فى
هذا الروع الأكبر.. ولكن وا أسفاه! لقد كان بيروس بن أخيل قد سبقهم
إليه فى عسكر مجر من أبالسة الميرميدون، وكان بوليتيس بن بريام،
وآخر فرع من دوحته الباسقة أبقا أمامه، مكروبا مفرعا، فارا إلى
ذراعى أبيه الضعيف الشيخ، يلتمس الحماية فى أوهى حمى.. فلم يزل
بيروس ينهب الأرض فى أثره.. حتى قتله بين يدي أبيه، وانقض على
الملك التعس فوضع حدا لهذه الحياة الطويلة المملولة الشقية التى
لطخها الدم البرئ وصهرتها جحيم الشدة.. ولم يغن عن بريام
المسكين توصلات هذه الزوجة المعذبة التى وقفت بينه وبين بيروس..
هكيوبا! الملكة المرزأة! التى بقيت وحدها لتجرع الثمالة الباقية فى
كأس الحياة.. مرا وعلقما..

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة.
تتلفت حولها! ترى المدينة الخالدة تضطرم.
النيران فى جنباتها.. وتندك صروحها العزيزة
فى الرغام.. وتتهاوى أبراجها المنيفة التى
سجدت تحتها آسيا الجيابة.. والآن!
ها هو ذا على ثرى اليوم لقى لا نفس فيه!
وجثة هامة لا تحمل اسمها بعد..
ورأسا معفرا.. من غير جسد! (١)

(١) عن فرجيل .

وزاغ بصر اينياس حين شهد هذا المنظر الرهيب، ووقر فى نفسه
أن مثل هذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ، أنخيسين، وبزوجته
الهيفاء كروزا، وبطفله المعبود أيولوس.. فلم يبال أن يقتحم صفوف
الأعداء إلى قصره الذى خلا غايه اليوم من أسده، وبدل الشوك من
ورده، وعاث فيه جنود الهيلانيين فأصبح قاعا صفصفا.. كأن لم يشد
فى دوحة بلبل.. ولم يحن فيه فؤاد إلى فؤاد!

وهناك.. فى إحدى الردهات المنعزلة.. وجد هيلين! نعم، هيلين!
سبب هذه الكوارث المتلاحقة التى حلت بطروادة والطرواديين.. هيلين
التي لم تبال أن تتزوج ديفوبوس - أخا باريس - عقب مقتل حبيبها
بأيام معدودة!

وجدها هناك.. تنقذ المصائب شررا من عينيها، وتتدجى عواشى
الكروب فوق هامتها، وتنقذ ظلمات الكوارث على جبينها.. ثم كشفت
له حجاب الغيب المحرم على أعين البشر، فرأى أن الآلهة أنفسهم
يعملون بأيديهم فى تخريب طروادة، وتدمير الطرواديين وعلى رأسهم
شيخ الأولمب وسيده زيوس.. كبير الأرباب..

«فانج بنفسك يا بنى.. ولذ بالبحر.. ولتنزح عن هذه الديار».

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه.. ولكن أباه استكبر وأبى..
بحجة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحى إليه بما توحى.. فغيظ اينياس
وأغلظ لوالده القول، ثم أمره أن يهب من فوره غير مستأن فيعتلى
كاھلى ابنه وإلا قتلوا فى الحال!

ولم يسع أنخيسين إلا أن يطيع.. فسار ابنه يحمله، وسار ولده
الصغير أيولوس بجانبه، وتبعتهما زوجة الجميلة كروزا..

كان قد اتفق مع أتباعه، قبل أن يقصد إلى قصر الملك، أن ينتظروه
فى هيكل خرب قريب من مياه الهلسبنت.. فلما أقبل نحوهم يحمل أباه
اتفقوا على أن يبحروا فى الحال.. ولكنه.. وا أسفاه! افتقد زوجه فلم
يجدها.. زوجه كروزا التى كانت الساعة فقط تتبعه!! لقد قتلها كلب من

شياطين الميرميدون!.. ولما رجع اينياس لبحث عنها لقيه طيفها
الجميل.. عند تمثال مينرفا.. فخاطبه قائلاً : «هلم يا اينياس! غادر هذه
الديار فى الحال.. واذهب إلى شيطان التير، فإن الآلهة قضت أن تبني
بيديك.. رومة.. أم القرى!!» وأبحر

.. وأبحرت فلول الطرواديين معه وعينه تفيض من الدمع على
كروزا!

وفى غبشة الصبح المضطرب، كان صوت الطبل الكبير يقصف
كالرعد فى خرائب طروادة. وكانت الجموع الحاشدة تهول نحو
الأسطول وكان السبى الكثير من عذارى طروادة وسائر نسائها
يهرولن هن الأخريات نحو البحر.. فكنت ترى هكيوبا الملكة..
وأندروماك الحزينة التى اغتصبها بيروس لنفسه.. وكاسندرا.. تلك
التي أحبتها السماء فأصبحت فى جملة السبى من سريات أجاممنون
وغانياته.. وكنت ترى غيرهن يهرولن فى الصباح الباكر إلى شاطئ
الهلسبنت، ليركبن البحر فيغبن عن أرض الوطن إلى الأبد..

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم..

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين.. وتسألها عن سبب ابتسامتها..
فتفتر كاسندرا وتقول.. «أماه ليس حظ هؤلاء الغزاة المنتصرين بخير
من حظ أبطالنا.. هأنذا أقرأ ألواح القضاء.. انظرى.. ها هو ذا مصرع
أجاممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة.. أنها تفضل اليوم ذراعى
ايجستوس الأثم على جنة يكون فيها زوجها..! إنها ستقتله، ستذبحه
بيديها.. حينما تطأ قدماه أرض الوطن!

وانظرى يا أماه.. ها هو ذا أوليسيز تعصف به الريح. ويلعب به
الموج.. ويؤرجحه البحر اللجى.. والعشاق يتقاتلون من حول زوجته..
وتليماك المسكين يضطرم غيره ولا يستطيع أن يفعل شيئاً.

وانظرى يا أماه.. ها هو ذا منلوس.. بائس.. كم أنت بائس
يا منلوس.. لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما هى! لقد نسى الشقى

أنها تقلبت فى أحضان أزواج غيره!.. انظري إليه يقذفه البحر إلى
شطان مصر.. وانظري إليه ذليلاً بين يدي هيلين يتوسل إليها وكان
أحرى لو أنه قتلها..



ونسى الهيلانيون فى نشوة النصر أن يقربوا القرابين للآلهة التى
نصرتهم وأيدتهم وأظفرتهم بأعدائهم، قبل أن يبحروا.. فأثار غضب
الأولمب.. واستنزلوا لعنة السماء، واستحقوا حنق حيرا ونبتيون
ومينرفا.. ونقمة زيوس!!

لقد ثارت ثائرة مينرفا.. فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرط
هؤلاء الجاحدون فى جنبها وجنب الآلهة.. واتفق الجميع على أن يسخر
نبتيون الجبار.. إله البحر.. رياحه العاتية على أساطيلهم فتمزقها..
وتضللها تضليلاً..

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء.. وما كادت تباعد عن
شواطئ اليوم.. حتى بدأت العاصفة تدوم.. وحتى أخذت الأمواج
ترسل أعرافها حول السفائن، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها.. وحتى
ارتعدت فرائص القوم.. ونظر بعضهم إلى بعض.. كأنهم فى يوم
حشر.. فهم لا ينبسون.

ولقد صدقت كاسندرا!

فها هى ذى الأساطيل الكثيفة تتمزق فوق سطح البحر.. وها هى
ذى جوارى منلوس المنشئات تدفعها العاصفة فى طريقها إلى.. مصر،
وها هى ذى مراكب أجاممنون تنكسر على الصخور الناتئة فى عرض
اليم.. وما يكاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجته
العاشقة مؤثرة عليه عاشقها الأثيم ايجستوس.. وها هى ذى سفين
أوليسيز تضل فى البحر الشاسع، وتتكسر بما عليها من سلب.. ويظل
البطل المغوار فى نقلة وترحال.. عشر سنوات. وتظل زوجته بنلوب
تنتظره.. وخطابها يقتتلون حول قصرها.. وتليماك، ابنها البائس ينتظر

أوبة أبيه. حتى يعود بعد شدة وبعد أهوال، فيدمر العشاق الأثمين..
وهاك بيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التي تظهر له الحب،
عاملة بنصيحة هكيوبا لها.. حتى تنشئ ابنها لينتقم لأبيه ووطنه من
اليونان.. وكانت تعتزم مضايقة بيروس ومناواته ليقتلها.. ولتسترح
بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور..^(١)

(انتهت)

(١) يعتبر هذا الفصل الأخير من طروادة النبع العذب الذي استمد منه اسخيلوس وسوفوكليس
ويوربيدس مآسيهم الخالدة التي أربت على العائتين، والتي لم يبق منها إلي اليوم أكثر من ست
وعشرين نرجو أن نقدمها للقارئ تباعاً وفي زمن قريب.

الفهرس

الصفحة

مقدمة	٥
التفاحه	١١
باريس يعود	٢١
إلى أسبارطة	٢٩
التعبئة	٣٩
أوليسيز	٤١
أخيل	٤٩
القربان	٥٩
الفدائى الأول	٦٩
بروتسيلوس البطل	٧٣
من السماء	٧٧
فتنة	٨٧
معركة بين الآلهة	٩٧
أندروماك	١٠٧
بتروكلوس	١١٧
مقتل بتروكلوس	١٢٧
أخيل يبكى بتروكلوس	١٣٥

الصفحة

١٤٣ صلح
١٥١ فزع الآلهة
١٥٩ طوفان
١٦٧ مصرع هكتور
١٧٧ بعد مصرع هكتور
١٨٧ بريام الحزين
١٩٧ مقتل أخيل
٢٠٥ فتح طروادة

رقم الإيداع ٩٨/٤٨٠٣

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0730 - 3

Bibliothèque Alexandrine



0443487

البيان

